هو .. منتهى الحب

أن ترى نفسك فى الآخرين ..

ذلك هو .. منتهى الحب ...

أحمد فريد


كتاب الجمهورية
عدد أغسطس ٢٠٠٧
www.gombook.net.eg
هو منتهى الحب
أحمد فريد
الطبعة الثالثة
دار الجمهورية للصحافة
١١١ ــ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٥٧٨٣٣٣٣

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية »

وإذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٥٧٨٣٣٣٣ ٥٧٨١٠١٠

http://www.eltahrir.net

عدد أغسطس ٢٠٠٧



تصميم الغلاف: صالح البرص

سكرتير التحرير
سيد عبد الحفيظ

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	١٠٠ ل.س
لبنان	٤٠٠ ل.ل
الأردن	١,٥ دينار
الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال
البحرين	١ دينار
قطر	١٠ ريال
الإمارات	١٠ درهم
سلطنة عمان	١ ريال
تونس	٢ دينار
المغرب	٣٠ درهم
اليمن	٣٠٠ ريال
فلسطين	٢ دولار
لندن	٢ جك
أمريكا	٥ دولار
استراليا	٥ دولار استرالى
سويسرا	٥ فرنك سويسرى

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهاً
الدول العربية ٣٠ دولاراً أمريكيا
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكيا
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكيا
باقى دول العالم
٥٨ دولارا أمريكيا

[١]

ما أن بدا الغروب يزحف إلى قرص الشمس المتوهج، حتى انطلقت صفارات مصنع الأقمشة بمدينة العاشر من رمضان «معلنة عن انتهاء موعد العمل اليومى».

بدأ العاملون فى المصنع ينصرفون فى مجموعات منتظمة، البعض يتوجه إلى السيارات الكبيرة التى ستقلهم إلى مواقعهم كالعادة كل صباح.. والبعض الآخر يستقل الميكروباس وهم من سكان المنطقة.

وقبل ان تتحرك السيارة الأولى، أطلت إحدى العاملات من النافذة وهى تصيح:

.. أسرعى يا أم خليل السيارة ستتحرك.

وأسرعت المرأة من وسط الجموع واستقلت السيارة وهى تلهث، ثم استقرت فى مكانها بجوار النافذة عند مؤخرة العربة.

تحركت السيارة، وانطلقت الأحاديث والثرثرة من كل جانب كعادتهم كل يوم بعد ساعات العمل المرهقة.. واختلطت الكلمات مع صوت تسجيل السيارة المرتفع رغم اختلاف المواضيع.. الجميع يسمع الجميع.. تقول واحدة لزميلتها:

ـ بمجرد وصولي للمنزل سألقى بنفسى فوق الفراش وأنام نوماً عميقاً.

وعلى الجانب الآخر تثرثر أخرى قائلة:

ـ زوجي ينتظرنى الآن.. لأننا سنذهب إلى شقيقتى لحضور عيد ميلاد ابنتها.

وينطلق عند المقعد الأمامى صوت أحدهم قائلا:

.. اليوم زوجتى وعدتنى بفتة كوارع وممبار.

فيجيبه زميله:

هنيئاً لك يا محظوظ.. اليوم يومك.

فى هذه الاثناء حاولت أم خليل أن تغفو قليلا ولكن ثرثرتهم حول عالمهم حالت دون تلك الإغفاءة.. فأزاحت ستار النافذة المجاورة لها وأطلقت بصرها إلى حيث المساحات الشاسعة، ولكن السيارة كانت تقطع الطريق بسرعة فائقة الأمر الذى جعلها لاتتمكن من

تثبيت نظرها على شئ محدد، فانسحبت إلى داخلها تتأمل حياتها المضنية.

كانت أم خليل فى الأربعين من عمرها، هذا ماتقره شهادة ميلادها، أما مايفصح عنه الواقع فهى تبدو فى الستين.. يشوب سمارها الشديد صفار أشد.. عيناها بلا بريق وشعرها قصير شارد.. عروق يديها نافرة بقوة، تبدو وكأنها قضبان حديدية افترشت جلدها الخشن.

تعمل فى المصنع منذ ثلاث سنوات بجدية فائقة خوفاً من أن تفقد وظيفتها وأخذت تعقد مقارنة بينها وبين التروس التى أمامها، فلاحظت أن بينهما تشابهاً كبيراً فالتروس تدور بلا كلل.. وهى تشقى بلا ملل.. الترس يزأر.. وهى تئن.. على أن هناك اختلافات بينهما.. الترس له ساعات محددة يتوقف عندها أما هى فلا.. هو يسرع إليه الآخرون إذا أصابه عطل.. أما هى فلا تجد من يسأل عنها اذا مرضت.. الترس يدور بمساعدة تروس أخرى ولكنها مطالبة بأن تسعى وحدها.. على الرغم من أنها تعيش مع زوجها الذى نزحت معه من جنوب الصعيد الى القاهرة هربا من ثأر متوارث فإن ذلك الرجل أذاقها مالا يحتمله جبل أصم.

كان عـربيداً عـاطلا تستر وراء هروبه لـيمكث داخل العشـة التى اقامها فـى أرض فضاء يمضى ساعـاته إما نائما أو شـارباً للخمر أو ملتـهماً طعـامه وطعامـها. . اسمـه إبراهيم. . واعتـاد الناس أن ينادوه «بأبى خليل» وبالتـالى أصـبحت هى الأخـرى «أم خليل». . حـتى اسمها وهو «باتعة» سلبه منها وأصبحت أما بلا إنجاب.

انكمـشت فوق مـقعـدها عندما تذكـرت أنها عـائدة، فالعودة بالنسبة إليهـا رحلة شقاء أخرى، فعليها أولاً أن تذهب إلى الفيلا المجاورة للأرض الفـضاء لترعى طلبات سيدتهـا زوجة وكيل النيابة حديث الـتخرج، من تنظيف أو مشـتريات. . وكان عـزاؤها أنهما يعـاملانها مـعاملة حسنة جداً. . كل هذا من أجل أن توفر المزيد من دخلها حـتى تتمكن مـن ملاحـقة مطالب زوجـهـا البلطجى، وبالرغم من ذلك لاتسلم غـالبـاً من ضربـه وإهانته لهـا بقسوة ووحشية.

توقفـت السيارة عـند نهاية شـارع جسر السـويس فى منطقة مـصر الجديدة. . هبط الجمـيع منها. . وهو نفس مركز تجمعاتهم فى صباح اليوم التالى.

لم تنتبه لصوت زميلتها وهى تقول :

ـ مع السلامة يأم خليل . .

كـانت شـاردة . . سـارت عـدة خطـوات ثم توقـفت تتفـحص كيس نقـودها . . ارتجفت هلـعاً . . أدركت أن النقود التى معها لاتكفى . . ولكن لابأس من المحاولة . . حـتى وصلت إلى مـحل بائع الخـمـور . . ومـا إن رآها الرجل حتى بادرها :

ـ آهلا يأم خليل .

أجابت على استحياء :

ـ مساء الخير ياخواجة لطيف .

اتجه الرجل إلى أحد الأرفف وتناول زجـاجة من الخمر الردئ . . وتأهب لأن يضعها فى الكيس . . ولكنه لاحظ توترها . . فنظر إليها بعين خبيرة . . ثم قال :

ـ فلوسك يا أم خليل

ارتعشت شفتاها قبل أن تقول متلعثمة :

ـ فى الحقيقة ياخواجة . . أنا . .

لم يمهلها لكى يسـمع باقى كلماتها . . واستدار ليـعيد الزجاجة مرة أخرى إلى مكانها فوق الرف .

كادت أن تصرخ وهى تستوقفه :

ـ انتظر ياخواجه.. ربنا يخليك.. ناقص اثنين جنيه

أجاب بحزم :

ـ تعرفين طريقتى .. أنا لا أتعامل بالشكك.

ثم جلس وراء مكتبه وهو يردد:

ـ عودى غداً..

ـ أقبل يدك ياخواجة.. سيقتلنى إن لم أحضر له الزجاجة.

قال بلا مبالاة

ـ هذا ليس شأنى.. انصحيه أن يمتنع عن الشرب.. ذلك أفضل له ولك..

استدارات وقد ترقرقت الدموع بين جفنيها.. وبدأت تجر خطواتها إلى حيث المجهول.. حيث المصير المحتوم.. فهو قاتلها اليوم بلاشك.. وماكادت أن تنصرف حتى فوجئت بالرجل يستوقفها قائلا:

ـ أم خليل..

التفتت إليه بلهفة.. بينما اتجه هو مرة أخرى إلى الرف وتناول زجاجة أصغر حجماً من سابقتها وأردأ نوعاً.. ثم وضعها فى الكيس ومده إليه قائلا:

ـ خدى يا أم خليل.. عندك من الهموم مايكفيك.

تناولت الزجاجة وكأنها تختطفها.. ورددت:

ـ ربنا يخليك ياخواجة .. و ....

استدارت بسرعة تأهباً للانصراف.. ولكنه لاحقها بجدية:

ـ إلى أين؟

تجمدت فى مكانها بعدما انسحبت الدماء من عروقها وقد خيل إليها أن الرجل تراجع عن موقفه.. فبادرها قائلاً:

ـ أين النقود التى معك؟

ابتهجت أساريرها وهى تمد إليه مالديها من جنيهات بيد مرتعشة.. قائلة:

ـ الفرحة أنستنى ياخواجة سامحنى.

وانطلقت منصرفة من المحل.

واستوقفت أول ميكروباس لمحته عيناها وهى تردد:

ـ النزهة الجديدة يابنى

انكمشت داخل الميكروباس، وهى مغمضة العينين وكأنها تتخيل مايمكن حدوثه لو لم تفلح مع الخواجة..

لم يكن الطريق طويلاً.. دقائق قليلة وصلت بعدها إلى حيث منطقتـها.. هبطت من السيارة، وبدأت تتـعثر فى خطواتها بتثاقل شديد.

الساعة اقتـربت من التـاسعـة مسـاء.. مسـاحات شاسـعة من الأراضى الفضاء حـولها.. بعض المنازل والفـيـلات المتناثرة هنا وهنـاك.. وصلت لإحـدى الفـيـلات وتوقفت عنـدها، ثم تسللت بنظرها تجـاه الكوخ الصفيح المغطى بالخوص الذى يستقر عل مقربة من الفـيلا.. ارتجـفت لمجـرد تصـورها بأنها سـوف تكون بمفردها مع زوجها فى ذلك الكوخ بعد دقائق. دلفت داخل ممر الفيلا، وصـعدت درجات قليلة. ثم وقـفت لتدق الجـرس.. وما هى إلا لحظات، حـتى انفتح الباب أمـامها ليكشف عن سيدة رقيـقة بادرتها قائلة:

ـ أهلاً ياأم خليل.. ادخلى.

ودخلت وهى تتـخلص من نعـلها خـشـيـة أن يتـسخ المكان.. ثم قالت:

ـ كيف حالك ياست هانم؟ أراك مثل القمر!

ابتسمت سيدة الفيلا لهذا الاطراء.. وهو فى الحقيقة

إطراء فى محله فـهى قمحـاوية البشرة، شـعرها بلون الليل الصـافى، وعـيناها من فـصـيلة عيـون المهـا . . وقوامها ممشوق ينبض بالنضارة والشباب . . تعيش حياة هادئة مع زوجهـا وكيل النيابة بعـد قصة حب عظيـمة توجت بالزواج بعـد الكثيـر من الخلافـات الأسرية . . التفتت نحوها قائلة :

ــ اجلسى ياأم خليل .

ترددت برهة قبل أن تجيب :

ــ ربنا يخليك ياهانم . . لكني أريد أن انتهى من تنظيم المكان حتى لا أتأخر على أبوخليل .

قالت نرمين هانم بحنان :

ــ لا ياأم خلـيل . . اليـــوم لاداعى لأن تقـــومى بأى شئ . . فـأنا أراك مرهقـة ويجب أن تسـتريحى، تعـالى وأجلسى بجانبى .

تقـدمت بخطى منـهارة، ثـم جلست على الأرض وكأنها تتهاوى وهى ممسكة بالزجاجة بكل قوتها .

ــ قولى لى ياأم خـليل . . ماذا عن أخبـارك . . أمازال زوجك يضربك؟

ـ الحال كما هو ياست هانم. . وما باليد حيلة:

ـ أفـهم من ذلك أنه لم يتـعظ بالرغم من أن عـمـرو زوجى عنفه أكثر من مرة.

أجابت بانكسار:

ـ لاتشـــغلى بالك يـاهانم . . المهم رضـــاك عنى. . ونهضت بصعوبة تتأهب للانصراف.

ولكن نرمين هانم تستوقفها قائلة:

ـ إنتظرى يا أم خليل. .

وغابت عنها بضع دقائق. . ثم عـادت إليها وهى تحمل لفافة بين يديها. . وقدمتها إليها قائلة:

ـ خذى ياأم خليل هذا عشاؤك أنت وزوجك.

حاولت أن تـقبل يدها قبـل أن تأخذ اللفافـة. . ولكن نرمين سحبت يدها بسرعة وهى تقول:

ـ إذا حاول أن يضـربك مرة أخرى. . تعالى وأخـبرى عمرو بك.

ـ حاضر ياهانم . . ربنا مايحرمنى منكما.

وانصـرفت فى طريقـها إلـى الكوخ المجاور للـفيـلا.

أحست بشئ من الارتياح بعد حوارها مع نرمين هانم.. فهى تحبها بصدق.. والأخرى تعطف عليها وتجود عليها بكل مافى مقدورها.. ثلاث سنوات وهى تقوم على خدمتها، ولم تجد منهما غير كل الحب والعطف والرعاية.

دخلت الكوخ وهى مترددة.. وجدت زوجها يجلس القرفصاء فى أحد أركانه يعد لفافة التبغ بنفسه.. رأته كالشيطان.. بادرها بلا مبالاة:

ـ جئت ياوش الغراب.

تقدمت أكثر وهى تجيبه :

نعم جئت .. و ..

قاطعها بعجرفة:

ـ أين الزجاجة؟

مدت اليه الزجاجة وهى تردد:

ـ هذا كل مايهمك؟

أجاب مستظرفا:

ـ لا .. يهمنى جمالك الفتان ياأم أربعة وأربعين

وماكادت تستدير لتضع لفافة العشاء فوق الطبلية الخشبية.. حتى فوجئت به يصرخ:

ـ ماهذا يا ابنة (. . . . .)؟ هذه الزجاجة ليست من النوع الذى أشربه.

ـ النقود لم تكن كافية.

نهض فظهرت ملامحه على ضوء لمبة الجاز.. كان أقصر قامة.. وأنحف منها، بل شديد النحافة.. عيناه جاحظتان.. وحاجباه كثيفان جدا وبشرته تميل إلى البياض..

تقدم نحوها بخطوة، جعلتها تنتفض هلعاً.. ثم قال متهكماً:

ـ لابد أنك طفحت سندوتشات فى الشغل.

ـ أبداً والله.. الزاد لم يدخل فمى طول اليوم

اقترب خطوة أخرى وهو يقول:

ـ إذن اشتريتى شيئا لنفسك.

ـ ماذا سأشترى لنفسى ياأبوخليل؟

صرخ كأنه يعوى:

ـ أنت بتسألينى أنا . . . و. . .

وهوى بكفه فوق وجهها بكل قوته، مما جعلها تترنح على الأرض.. وتكومت بجانب بعض الأوانى الالمونيوم.. مولولة:

ـ حرام عليك يامفترى.. حرام عليك

لم يأبه بشئ مما فعل.. وكأن شيئاً لم يحدث.. واستدار إلى مكانه، وجلس القرفصاء مرة أخرى.. وأخذ يخلص الزجاجة من لفائفها.. وراح يتجرع منها بنهم شديد.. ثم تساءل بحزم:

ـ ما الذى فى اللفافة الأخرى؟

أجابت من خلال دموعها:

ـ نرمين هانم أعطتنى العشاء

ابتهجت أساريره وهو يردد:

ـ أحضريه.

تحركت نحوه بصعوبة، ومدت إليه يدها بالعشاء، وما إن رآه أمامه، حتى إنقض عليه كالذئب وراح يلتهم الطعام بطريقة مقززة وهو يردد ساخرا:

ـ قطعتين لحم فقط داخل الأكل.

ثم واصل الالتهام.. وبين الآونة والأخرى يصب فى جوفه قدراً من زجاجة الخمر، حتى انتهى من الأكل والشرب معاً دون أن ينتبه إلى أنها لم تأكل.

تسللت إلى المرتبة الملقاه على الأرض، وارتمت فوقها

مقهورة يسيطر عليها الاعـياء.. بدأ النعاس يهاجمها..
ولكن.. أين المفر من هذا الجحيم.. حـيث ارتمى فوقها
كالحيوان.. وهى تحاول أن تدفعه صارخة:

ــ اعمل معروف أنا منهارة يا أبوخليل..

قال لاهثاً:

ــ وما شأني أنا.. أريد حقى كزوج.. و...

وأخذ حقه عنوة.. ثم القى بنفسه بجوارها كالجوال..
وقبل أن يـغط فى النوم العمـيق كالعادة هـمهم دون أن
يلتفت نحوها قائلا:

ــ غداً تحـضرى إلى هنا أولاً قبل أن تذهبى للفـيلا..
لأن أخى فهـمى سيحـضر ويريد خدمـة من البك وكيل
النيابة.

أجابت بلا وعى والدموع تنساب من بين جفنيها قائلة:

ــ حاضر.

ثم راحت فى الغيبوبة.

[٢]

كان اليــوم ربيعياً، كــل شئ فى الكون يكاد أن يشارك بعضــه البعض فى بهجــة الربيع.. الشمس مشــرقة بلا قســوة.. والنسمــات عليلة هادئة.. والأشــجار مــورقة تظلل أركــان حــديقــة الفــيــلا بحنو ورضى.. رائحــة الياسمين تفوح من كل جانب.

بينمــا نرمين تــنتــقل من مكان إلى آخــر فى رشــاقــة وانشراح تعد ترتيبــات الحفل الصغير الذى سيــضمها مع زوجهــا مساء الليلة.. فــاليوم عــيد ميــلاده.. سيكمل الخامسة والثلاثين من عمره.. شــاركته فى خمسة أعوام منها.. كانت من أروع سنوات حيــاتهما.. الحب وحده هو الذى يخطط لأحلامهما.. وبه تنبض مشاعرهما.. وصدى أحاديثــهما.. وهو الفكر والعقــل والرغبة وكل الأمانى.. كان حباً قوياً يتمتع بالصلابة فى مواجهة كل

العقبات التى واجهتهما فى بدء حياتهما. . استطاع عمرو بإصرار المحب أن يتحدى الظروف والعقبات من حوله ليحقق حلمه فى الزواج منها. . كانت أكثر المشاكل تعقيدا، هى مشكلة التفاوت الطبقى والفكرى بين أسرته وأسرتها فوالده كان يعمل أستاذاً للشريعة بجامعة الأزهر، يتصف بالحزم والتدين والصرامة، ووالدته تحمل الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى ولكنها لاتعمل.

بينما كانت أسرة نرمين تعيش فى إحدى قرى الشرقية وسط أسرة كريمة الخلق حسنة السمعة، لم ينجبا سواها مما سهل عليهما أن يحيطاها برعاية جيدة، واستطاعا أن يصلا بها إلى نهاية التعليم الجامعى. . وهى المرحلة التى التقت فيها بزوجها فى كلية الحقوق. .

وكان تواجدها بمفردها فى القاهرة حيث كانت تقيم فى بيت الطالبات، وبعض الأفكار والتصرفات المتحررة عندها سبباً مباشراً لرفض والده لهذه العلاقة، واستمر خلافهما فى وجهات النظر إلى أن استطاعت نرمين أن تثبت حسن نشأتها أمام والده، فوافق غير متحمس.

وهكذا لم يكن زواجهما تقليديا سهلا فى بادئ الأمر. وهذا هو السبب المباشر الذى جعلهما يلتصقان فى كيان

واحد متأهبين دائماً للذود عن حبهما الكبير أمام آية ظروف وازدادا ترابطاً عقب وفاة والده ثم والدته بعده بعامين وبعد أن هاجر شقيقه فى رحلة عمل طويلة إلى أمريكا.. أصبحت نرمين هى كل حياته وكل عالمه.. وهى أيضا وجدت فيه عوضاً عن وحدتها فى طفولتها، يمنحها الحنان والأمان اللذين تفتقدهما فى غربتها عن قريتها الصغيرة.

أسرعت إلى الشرفة لتتأكد من وصوله عندما سمعت صوت «كلاكس» سيارته كعادته دائماً عند عودته، وانفرجت اساريرها وهى تتابعه بحب وحنان كبيرين، كان عمرو طويل القامة هادئ الملامح، أسود الشعر والمقلتين، تميل بشرته إلى بياض، شديد الأناقة والاتزان، التقيا عند أول البهو فى قبلة خاطفة.. وهو يقول لها:

ــ وحشتينى ياحبيبتى.

ــ أنت أكثر يا غالى

خطى بجانبها وهو لايزال يحيط خصرها بذراعه.. وهو يسألها:

ــ كيف كان يومك يا حبيبتى؟

ابتسمت برقة قبل أن تجيبه :

ــ كان يومى مشحوناً . . مليئاً بالأحداث.

نظر إليـها باهتـمـام وهو يجلسهـا بجـانبه. . ثم قـال بجدية:

ــ ماذا حدث؟

ــ أولاً زاد يقينى بأنك أغلى انسان فى وجودى. . ثانياً أدركت أخيـراً أننى مهما فـعلت من أجلك فلن أعطيك حقك وقدرك. . ثالثاً إننى فى حاجة لمعنى أقدس وأعظم من الحب أحيطك به. . رابعاً. .

وهنا استوقفها ضاحكاً:

ــ كفى يا غـالية. . فلقد بدأت أغـار من قدرتك على المرافعة والإقناع.

ــ أنا لا أبالغ ياعـمـرو. . فأنت حـقـاً عظيم فى كل شئ. . ويكفى مـوقفك تجـاه عـجزى عن الإنجـاب فى الوقت الحاضـر، ومحاولاتك المتعددة لمعـالجتى دون أن تجرح مشاعرى. . أو. .

ولكن يقاطعها مرة أخرى في هدوء ورضا:

ــ ياحبيبتى إنك تشغلين بالك بأمور ليس لها مكان فى

تفكيرى ثم هذا الأمر من شأن الله، وعلينا أن نتقبل إرادته مؤمنين بقضائه، دون أن يؤثر ذلك على حياتنا.. و..

انتبه إلى أوراق الزينة المدلاة عند الجانب الآخر من الردهة، فنهض مسرعاً تجاه ذلك الجانب وهو يعبر عن ابتهاجه الكبير، وتبعته بهدوء وهى مدركة أنه يحاول أن يغير الحديث بشأن الإنجاب.. وراح يعدد إعجابه بكل شئ قائلا:

ــ ما كل هذا ياحبيبتى .. لابد أن اليوم رأس السنة.

رمقته بنظرة حانية قائلة:

ــ لا تتخابث يازوجى العزيز.. أنت تعلم أن اليوم عيد ميلادك وكل سنة وأنت في أحسن حال.

التفت إليها وهو يقبلها ثم ردد:

ــ فى الحقيقة كنت سأحزن كثيراً، لو أنك لم تتذكرى تلك المناسبة.

ازدادت التصاقاً به وهى تقول:

ــ كيف أنسى أجمل أيام عمرى.

تراجع بخطوة وهو ينظر إليها باهتمام قائلا:

ــ بالمناسبة ياحبيبتى كدت أنسى أن أخبرك ابلاغ أم

خليل بأن موضوع قريبها الخاص بطلبه فى الحصول على كشك السجائر، لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان لديه محل إقامة معروف.. لقد سألت له فى هذا الشأن من أجل عيونك ياحبيبتى فأنا أعلم قدر أم خليل عندك.

غابت لحظة مع نفسها قبل أن تقول وكأنها تحادث نفسها:

ـ أم خليل .. ليت أدرى ماذا اعتراها إننى لم أرها منذ ثلاثة أيام. فى الحقيقة أنا قلقة عليها.

كانت نرمين محقة فى قلقها على أم خليل، فهى تعانى مشكلة غير متوقعة مع زوجها، حيث فوجئت ذات يوم بدوار عنيف أقعدها على فراش المرض دون أن تعرف السبب إلى أن تطوعت إحدى زميلاتها وأخذتها لأحد المستوصفات المجانية لتكتشف الحقيقة المباغتة، وهى آخر ما كانت تتوقعه أو يتوقعه غيرها.. علمت أنها حامل فى شهرها الثالث.

على الرغم من سعادة أبوخليل البالغة لهذا النبأ إلا أنه كان ثائراً ومتمرداً لكونها توقفت عن العمل عدة أيام تسببت فى فقده الكثير من متعته الخاصة سواء من ناحية

شــرب الخمــر أو ماتجــود به الفيــلا أو ممارسة اســاليبــه الهمجية التى لم يتوارع أن يسميها بالحقوق الزوجية.

ولهذا أفصح في ذلك اليوم عن غضبه قائلاً:

ـ يخرب بيتك .. إنت متصورة أنى سأستأجر لك من يخدمنى ويخدمك.. هل أنت أول امــرأة تحمل.. ابتداء من غد لابد أن تــذهبى للعمل وإلا سأمــزقك أنت ومن فى بطنك بالسكين.

أجابت والاصفرار يكاد يطفح فوق وجهها:

ـ حاضــر ياأبوخليل.. بإذن الله باكر سأكــون أحسن حالا.. وسوف أذهب للمصنع..و..

قاطعها وهو يعبث بأصابع قدميه الحافيتين:

ـ أنا ليس لى دخل إذا خصمــوا منك شيئاً.. لاتنسى الزجاجــة.. وأيضا تمرى عــلى الفيــلا، الواحد معــدته نشفت من قلة أكل الأكابر.

ومن خلال هزالها الشديد أجابت :

ـ حاضر

و .. بدأت رحلة الــشــقــاء من جــديــد لأم خليل.. صباحهــا كمسائها.. الظلام خارجــها وداخلها.. تأكل

الفتات من أجل النبتة التى نبتت فى أحشائها، وهو يلتهم كل ماهو فى متناول يده من أجل رغباته.. تئن هى تحت وطأة الوهن.. وهو لايكل من لعنة الزمن.. هى تلفظ أنفاس صحتها وهو يزفر أنفاس المخدرات.

لاشئ كان يحول دون فكرة الانتحار لديها سوى معاملة نرمين هانم لها.. كانت ترعاها بعطفها، وتحقق رغبات زوجها لكى لاتتيح له الفرصة لممارسة إرهابها واذلالها. إلى أن جاء شهرها الأخير فى الحمل، وفوجئت بنرمين هانم تخبرها قائلة:

ـ اسمعى ياأم خليل.. سأقترح عليك اقتراحاً وأرجو ألا ترفضى.

ـ أنت تأمرى ياست هانم.

ـ أريدك أن تتركى العمل منذ اليوم .. على الأقل إلى أن تتم الولادة.

وكأن ثعباناً لدغها.. وقالت صارخة دون أن تدرى:

ـ يانهار إسود.. أبوخليل يقتلنى.. من أين سأوفر له طلباته.. ولولا مساعدتك لى ياست هانم لكنت فى عداد الأموات الآن.

قالت بتحد واصرار :

ـ لايهمك سأتولى أنا منحك ماتريدين:

همهمت فى استحياء:

ـ والبيه الكبير.

ـ أنت تعلمين أن عـمرو بك لايرفض لى طلبـا . . ثم أنك معنا منذ سنوات والمفروض أننا نرعاك.

صمتت لعدة لحظات ثم قالت والخوف يسكن نظرتها:

ـ أخاف ياست هانم لو علم أبوخليل ستكون نهايتى.

ـ قلت لك لاتخـافى، فهو لن يـشعر بشئ وسـتسـير الأمور كما أريد وتريدين.

وكـانت نرمين عند وعـدها . . فلم تجـد صعـوبة فى إقناع زوجها بالفكرة . . وأصـبحت أم خليل تخرج من العشة كل صباح وكأنها ذاهبة إلى المصنع، ثم تلجأ إلى الفيلا لـتمكث بها حتى الغـروب، ثم تتسلل إلى بائع الخـمـور وتعـود وهى مـحـملة بأشـهى الطعـام وكل مـتطلبات زوجـهـا . . وتعيـد الكرة فى صـباح اليـوم التالى.

وهكذا عاشت أم خليل لأول مرة فى حياتها مـستمتعة

بحقوق الإنسان.. الكيان والمشاعر.. تذوقت طعم النوم في استرخاء..

وافترشت الدماء وجنتيها.. وبدأت شقوق كعبيها تلتئم، أحسست لأول مرة بأن هناك معنى لكلمة: الأمان.. وبأن للدنيا ليلاً ونهاراً وشمساً وقمراً.. انبهرت أمام شاشة التلفزيون، لم تصدق نفسها عندما ابتسمت أمام مسرحية كوميدية.. شعرت ببعض العنفوان ولهذا لم تعد تكترث لصيحات زوجها المخمور، باتت تتعامل معه وكأنه معتوه.. حتى لحظات جموحه الشرسة كانت تتقبلها بنفس راضية، لأنها تعلم بأنها سوف تلتقى بيوم آخر مشرق.

إلى أن جاء ذات مساء، والليل قد تجاوز نصفه، وجدت نفسها تنتفض من شدة الألم، فزع أبوخليل وهو راقد بجوارها.. وصرخ ثائراً:

ـ ماذا بك يابنت الحيوان؟

قالت وهى تكتم ولولتها:

ـ إنى ألد ياأبوخليل.. أشعر بأحشائى تتمزق.. و..

ازداد صراخها مما دفعه لأن يضع الوسادة فوق فمها

حـتى كـاد أن يقتلهـا. . لولا صـوت الزائر الجـديد فى حـياتهـمـا. . أنجبت ولداً. . وهو كل مـاجـذب انتبـاه أبوخليل فأخذ يهلل كالمجنون صائحا:

ــ ولد . . ولد . . راجل من ظهر راجل.

بينمـا هى تقـاوم إعيـاءها وتحـاول إنهاء اللازم بشـأن طفلها. . رددت وهى تتحسس حبل السرة:

ــ ده شكله جميل ياأبوخليل.

قالها بلا تردد:

ــ شبهى يا أم أربعة وأربعين.

وقبل أن تجيبه، فقدت السيطرة على نفسها وراحت فى غيبوبة بين النعاس والموت.



[٣]

كانت فـرحة فهـمى شقيق «أبوخليل» عـارمة بالمولود الجديد حيث تصادف حضوره فى اليوم التالى وراح يردد صارخا:

- هذا الولد لابد أن يصـبح قـويا جريئـا لكى يأخـذ بثأرك يا أبوخليل شـمر عن ساعديه قبل أن يجـيبه، ثم تنهد قائلا:

- سأجلعه يأكل الثعابين ويمتص دماء العقارب، لكى لا يخشى شيئا فى حياته.

يضحك فهمى معلقا:

- والله أنا أخاف أن ترضعه الخمر يا أخى.

وانطلق الاثنان فى قهقهات عالية، إلا أنهما توقفا فجأة عن الضحك عندما انتبها إلى أنات أم خليل وهى تجلس

القرفصاء بينما وليدها بين ساقيها التفت زوجها نحوها ثم قال مزمجرا:

- ماذا بك يا وجه الغراب؟

ازداد بكاؤها وهى تتمتم بهمهمة غير واضحة أثارت زوجها وصاح غاضبا:

- ماذا تقولين يا معتوهة؟

حاولت أن تتماسك وهى تمسح دموعها بطرف جلبابها.. ثم قالت:

- ثديى فارغ.. ليس فيه ما أرضع به وليدى.

تساءل ببلاهة:

- ماذا تقصدين؟

- ابنى سيموت إن لم أطعمه.. و..

وقبل أن تكمل حديثها انتفض أبوخليل تجاهها ممسكا بحذائه الممزق، وراح يضربها على رأسها بقوة وهو يصرخ كالمجنون:

- لو حدث له مكروه سيكون آخر يوم فى عمرك.. سأقتلك قبل أن يضيع ولدى منى.

استطاع فـهمى أن يخلصهـا منه، وهو يحاول تهـدئته وأجلسه بجواره مرة ثانية وهو يقول:

- ماذا تفعل وصدرها ليس فيه ما يشبع الولد؟

أجابه الآخر لاهثا بلا اكتراث:

- ليس لى دخل.. الولد لازم يعيش.. و..

صـمت عـدة لحظات وكأنه يـسـتـرجع شـيئـا مـا فى مخيلته.. ثم التفت إليه قائلا بجدية:

- اسـمع يا فهـمى.. اذهب إلى الفـيـلا وأبلغ الست هانم والبك وكيل النيابة أن أم خليل بتموت لأنها ولدت ولد.

وبعد لحظة صمت أخرى نظـر من خلالها إلى الرضيع استطرد قائلا بحماس:

- وأخبرهما أيضا أن الولد سوف يموت هو الآخر من الجوع.. أنا أعرف أنهما أولاد ناس طيـبين.. كما أنهما يحبانها.

وضحك فجأة مستهزئا.

- والله ما انا عارف كيف يحبونها؟

تردد فهمى برهة قبل أن ينطق حائرا:

- ولكن . .

قاطعه أخوه متعجلا :

- مالك يا راجل متمسمر فى مكانك . . انهض وافعل ما قلته لك . . قبل البك ما يخرج .

شعر فهمى بأن قدميه تهتزان وهو يقف أمام بوابة الفيلا الخارجية . . وبأصابع مرتعشة ضغط على الجرس . . وبعد دقيقة ظهر أمامه عمرو، فازداد ارتباكا . . وكأنه تذكر أنه يقف أمام القانون وهو أكثر ما يخشاه . . فبادره عمرو متسائلا :

- أية خدمة؟

اذدرد ريقه قبل أن يردد ما حفظه بالضبط، فى أثناء ذلك ظهرت نرمين على مقربة لتستطلع الأمر، وما إن أدركت مضمون الحوار حتى أسرعت إلى الداخل وعادت وهى تمد إليه يدها بورقة صغيرة قائلة :

- اذهب إلى الصيدلية فورا . . واشترى ما هو مكتوب فى الورقة واطلب من أم خليل أن تحضر إلى عندما تستطيع ذلك . . و . . انتبه لعمرو وهو يمد إليه بورقة نقدية فئة الخمسين جنيها قائلا :

- خذ هذا المبلغ لتشترى لها ما تحتاجه الآن فورا.

كادت أنفاس فهمى تتوقف عندما سمع صوت وكيل النيابة وهو يأمره، وانطلق من أمامهما دون تفكير متجها إلى أقرب صيدلية، وبالرغم من بعدها عن المكان إلا أنه قطع المشوار مهرولا ذهابا وعودة.

وما إن دخل العشة الخوص، حتى ارتمى بجوار أخيه وهو يناوله باقى المبلغ ويقذف للأم باللفافة الخاصة بها.. ثم قال لاهثا:

- أعوذ بالله الرجل عينيه مثل الصقر لم ينتبه إليه أحد.. حيث انشغل أبوخليل فى إحصاء النقود التى فى يده.. وانهمكت زوجته فى تحضير الغذاء لطفلها والسعادة تملأ وجهها.

ولكن.. كأن الشقاء كيان لديه رغبات يأبى أن يترك تلك الأسرة الصغيرة لحالها، وكأن العذاب قد استطاب أن يحيا بين أفرادها، بل اعتاد عليهم كما اعتادوا عليه.

لم يدركا أن الفقر لا يبتسم أبدا، وإن حاول فلن يكشف إلا عن أنياب سامة تقضم كل الأمانى والأحلام.. وبأن السعادة لا ترتسم إلى فوق شفاه الابتسام.

لم يعرفـا قط طريق الأمان. . الخوف وحـده رفيقهـما الأبدى. . الخوف من الفقر المضنى، والقهر المزرى.

كأن القـدر لم يرد لروح الطفل البريئـة أن تعيش وسط ظلمات الدنيا ومآسيهـا، فبث الحب والتعاطف تجاهه فى وجدان أهل الفـيلا، حتى باتـا لا يفارقانه إلا كل مـساء عند عودة أم خليل من عملها.

إلى أن جاءت الليلة الموعودة، والتى أعلن فيها العذاب استياءه من الرجل الطريد وزوجتـه البائسة، وكأنه اكتفى بهذا القـدر من الشقاء فى حـياتهمـا، وكأن جسديهـما النحيلين، الجافـين كأوراق الخريف، ونفسيهـما المحطمة كدمار الحروب لم تعد جميعا تستهوى العذاب، إنهما لن يحتملا المزيد، سعى هذا العذاب أن يخلصهما من آلامه رأفة بهـما، فى التغـيير لينـتقل إلى نفوس أخـرى كتب عليها أن تبدأ الرحلة معه من جديد بشكل أو بآخر.

كـان ذلك عند عـودة أم خليل إلى زوجـها فـى غيـر موعدها المعتاد، مما أثار الشك فى وجدان زوجها فبادرها متحفزا:

- ما الذى أتى بك مبكرا هكذا؟

أجابت وهى تحبس أدمعها بين جفنيها:

- فصلونى من العمل.. و..

قاطعها بلهفة:

- هل سرقت.. وكم سرقت.. ولماذا لم تنكرى.. وأين حصيلة «ما سرقتيه»؟

رمقته بأسى.. ثم قالت:

- أنت تعلم أننى لم أرتكب الخطيئة طوال حياتى.

تساءل فى ملل:

- إذن لماذا فصلوك يا طاهرة؟

- قالوا إن صحتى لم تعد تحتمل العمل.. وبأنى أصبحت عالة على المصنع.

قال بنبرة بليدة:

- وأين مكافأتك.. كم أعطوك؟

أجابت والحسرة تملؤها:

- مكافأتى كانت مقابل السلفيات التى كنت آخذها.

انتفض مذعورا، وتناول عصا غليظة من جواره.. وما كاد يخطو خطوة فى اتجاهه، لكى يمارس معها جبروته وقسوته، حتى اشتد عودها فجأة وتسمرت فى مكانها

وكل خلجة فى كيانها قـد تأهبت للذود عن نفسها لأول مرة فى حياتها.. ثم صاحت متوعدة:

- إياك أن تقـتـرب منى.. لـقـد سـئـمت منك ومن أنانيـتك.. بسبـبك أصبـحت لا أقوى على العـمل.. وبسبـبك جعلتنى أترك وليدى عند الآخرين.. حـرمتنى حتى من ممارسة أمومتى.

انتفخت عـروق رقبته، وصـمت برهة مذهولا مما يراه ويسمعه من امرأته.. ثم هجم عليها كالثور الجامح وراح يضربهـا بقسوة تحطم القـضبان قبل الأبدان، مما أفـقدها رشدها وتحولت فجأة كالنمـرة المسعورة وأنشبت أظافرها الصلبـة فى وجـهـه، وبالرغم من الدمـاء الغـزيرة التى اندفعت من إحدى عينيه بعد أن فقأتها بشراسة، إلا أنها لم تتـوقف وأخـذت تنهش فى صـدره بأسنانهـا، وهو يصـرخ فى هسـتيـرا وكـأنه اكتـشف فـجـأة أن الخمـر والمخدرات قد سلبته صحتـه وقواه وأصبح لقمة هشة فى فم امرأتـه الثائرة، ولم يجـد وسيلة لإيقـافهـا سوى أن يتناول لمبة الجاز المشتعلة ويـقذفها بها، وفى لحظة تمكنت النار من شعرها وملابسها وبالرغم من ذلك استطاعت أن تلحق به وتنقض على رقبته بكلتا يديها فنالت منه النيران

واشتبكت مع ملابسه، وراحت تلتهم جسديهما بسرعة خاطفة وكلما سقطا سويا فوق ركن من أركان العشة كانت النار تزداد اشتعالا، وذابت صرخاتهما وسط صياح بعض المارة الذين كانوا يمرون بالمكان مصادفة حتى أتت النيران على العشة وما فيها، ولم يبق منها سوى بضعة ألواح من الصفيح المتوهج، فاندفع أحدهم بعد أن لاحظ وجود الفيلا على مقربة من المكان سعيا من أجل الاستغاثة واستدعاء سيارات الإطفاء فى حين تلاحقت الكلمات من حول الضباب الأسود الكثيف فى محاولة لاستكشاف الأمر، وكثرت الأقاويل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله سمعت أحدهم وهو يصرخ.

ويقول الآخر:

- يا جماعة قد يكون هذا المكان هو المخصص لحرق القمامة ولكن الثالث يؤكد:

- لا.. لقد سمعت استغاثة امرأة ولكنى لم أتبينها وبعد دقائق قليلة وصلت سيارات الإطفاء، واتخذت مكانها فى محاولة يائسة لإنقاذ الموقف.. ولكن بعد

فوات الأوان.. ولـم يسفر الأمـر إلا عن بقـايا جثتـين متشابكتين متفحمتين.

وعند الطرف الآخر من المكان، وقفت نرمين هانم وراء شرفتها وهى تحمل الطفل الرضيع بين يديها، وكل نبضة فى كيانها تنتفض هلعـا وذعرا من هول المفاجأة حيث لم تدرك حقيـقة الأمر إلا بعد أن أتاها أحـد المارة مستغـيثا لطلب النجـدة وتولت هى استدعـاء سيـارات الإطفاء، وهى لا تدرى أن النار كانت أسرع من كل اسـتغاثة وبدأ ضباط المباحث فى التحقيق مع بعض المارة الذين اعتادوا المرور بهذا المكان، ومع بائع الصـحف.. وبعض سائقى الميكروباص.. ولكن الجميع أجمعوا على معلومة واحدة وهى أنهم لا يعرفون شيئا عن هاتين الجـثتين إلا كونهما يدعـيان: أم خليل، وأبوخليل.. لا أحـد يعلم من أين أتيا، ومن هما، ومـا الاسم الحقيقى لكل منهـما، حتى أن أحـدهم تطوع بمعلومـة أخـرى، أخـبر بهـا ضـابط المباحث وهـى أنه كان يرى فى بعض الأحيـان أم خليل وهى منصرفة من فيلا وكيل النيابة، لم يتوان المحقق فى سؤال نرمين هانم التى لم تضف شيئا إلى التحريات التى وصلت إليها.. وأخبرته أنها لا تعلم عنهـما شيئا سوى

أن اسمهما أم خليل وأبوخليل، وبأن الزوجة كانت تأتى فى بعض الأحيان لتعاونهـا فى ترتيب الفيلا ولهذا كانت تعطف عليـها وتمدها باحتـياجـاتها، وأثبتت المـعاينة أن سبب الحادث اشتعال لمبة الجاز مما أسفرت عن الحريق.. واعتبر الحادث قضاء وقدرا.

وفى المسـاء عاد عمـرو إلى فيلتـه ليفـاجأ بذلك النـبأ المؤسف الذى أخبرته به زوجتـه المنهارة من هول المشهد، وهو يحاول تهدئتها قائلا:

- هذا أمـر الله يا نرمـيـن.. حـاولى أن تهـدئى من روعك.

قالت والدموع تنساب من عينيها.

- الله يرحمهـا.. كانت امرأة طيبة عاشت تعـيسة.. وماتت تعيسة.

تقدم بخطوة تجاههـا وربت على كتفها فى حنان كـبير وهو يقول صادقا:

- أنا لا أطيق رؤية الدمـوع فى عينيك يا حـبيـبتى.. أرجوك أن تكفى عن البكاء.

حاولت أن تتماسك.. هامسة:

- لا أصدق أن يحدث كل هذا فى دقائق معدودة.

- قلت لك إنها أرادة الله.. فلا تحزنى.

واستدار فى اتجاه درجات السلم ليصعد إلى غرفته، وما كاد يفعل حتى تسمرت خطواته فوق أول درجة عندما ترامى إلى مسامعه صوت بكاء الطفل الوليد.

ومضت لحظة كأنها دهر قبل أن يلتفت نحوها فى ذهول متسائلا:

- ما هذا؟

جاهدت فى أن تخفى نظرتها الحائرة إليه.. وتمتمت:

- إنه.. إنه

وأسرعت إلى الطفل الباكى، وحملته من فوق المقعد الوثير وضمته إلى صدرها فى رفق شديد.. بينما تحرك عمرو إليها وهو لايزال فى اندهاشه ثم قال:

- ألم يكن الطفل معهما وقت الحادث.

أشارت برأسها تنفى ذلك دون أن تنطق بحرف واحد.

تساءل مرة ثانية:

هل أخبرت المحقق بذلك؟

عاد نفيها بإشاراتها الصامتة.

علت نبرة صوته فى انزعاج كبير قائلا:

- كيف.. كيف لم تخبريه.. ولماذا لم تفعلى.. ألا تقدرى مسئولية ذلك.. واستدار غاضبا وهو يردد فى حزم:

- غدا فى الصباح سأتولى أنا هذا الأمر.

ولكنه توقف فجأة عندما سمع صيحتها اللاإرادية:

- لا.. لن يحدث ذلك.

التفت نحوها متعجبا:

- ماذا قلت؟

- قلت إننا لن نبلغ عن وجوده بيننا.. لا أحد يعرف عنه شيئا.. ولا أحد يعرف عنهما شيئا.

اقترب منها والذهول يكاد أن يصيبه بالدوار ثم قال:

- ماذا تقصدين بكلمة إننا لن نبلغ عنه؟

انشغلت عنه بضع لحظات، وضعت فيها الطفل فوق المقعد مرة ثانية بهدوء، ثم عادت إليه وفى نظرتها الكثير من معانى الحب والتوسل والتحدى.

وجلست فوق أول مقعد فى طريقها.. ثم قالت باستعطاف:

- من فضلك اجلس وحاول أن تتفهم موقفى.

جلس أمامها كالمسحور.. بينما أردفت هى قائلة:

- أنت تعلم ظروفى الخاصة بالنسبة للإنجاب.. وقد يكون ذلك مستحيلا.. والله وهبنا هذا الطفل عوضا عن عجزى.

- تقصدين أن نتبناه؟

أجابت بإصرار:

- بل نجعله ابننا.. إنه لم يكمل أسبوعه الأول بعد.. يمكن أن تسجله باسمك.. و..

قاطعها بجدية:

- أنسيت أننى رجل قانون.

- الرحمة فوق العدل.

هذا المنطق أرفضه تماما.. إنها جريمة يعاقب عليها القانون.. فكيف أقدم على ارتكابها وأنا أحد الذين يطبقون القانون.

نهضت قائلة فى تحد:

- القانون يعاقب الجريمة التى تضر بالآخرين.. أخبرنى أية جريمة سوف ترتكبها ضد المجتمع إذا ما جعلنا هذا البرىء ابننا بحق.

تلفت فى كل اتجاه وهو يبحث عن لا شىء.. ثم أجاب:

- إنه تحايل وتزوير.

عادت وجلست أمامه ثم قالت متلطفة:

- تحايل ضد من.. وتزوير لصالح من.. إنه عمل إنسانى هيأته الأقدار لتسعدنا به.. ولتسعده بنا.

وقف وكأنه يترافع فى المحكمة قائلا:

- هناك قنوات شرعية يمكننا أن نسلكها.. والقانون فى هذه الحالة سيصبح معنا.. و..

قاطعته بانفعال:

- هذا هو الظلم بعينه.. نعم القانون فى هذه الحالة سيصبح ظالما.. أخبرنى أنت بصفتك رجل قانون أيهما أفضل لهذا الطفل البرىء.. أن ينشأ لقيطا مجهول الهوية.. أم أن تتاح له فرصة الحياة الكريمة وسط زوجين مثلنا.. أيهما أفضل بالنسبة للمجتمع، أن يضاف إليه فرد سوى أم أن يضاف إليه فرد معقد.

- أنا لست مسئولا عن كل المجتمع.

- ولكننا مسئولين أمام الله.

- والله لم يأمرنا بالكذب والتحايل.

- أبدا.. ولكنه يأمرنا بالرحمة والحب والسلام.

صمت لحظة حاول خلالها أن يستعيد هدوءه، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- ومستقبلى.. وضميرى.

لاحقته بتودد:

- أنت لم تسرق ولم تقتل.. ولم تختطفه ولم تحرمه من ذويه.. كما أنك لم تخف شيئا تعلمه عن أهله بل أنت ستمنح ا سمك النظيف الذى سيفخر به عندما يكبر وستمنحه الرعاية والحب والأمان وأنا على يقين بأن الله سيرضى عنا.. وعنك أنت بالذات لأنك أنقذت نفسا بريئة ليس لها ذنب فيما حدث.. سوف تنقذها بأمر الله من التمزق الوجدانى والتشرد الفكرى.. و..

سكتت لحظة وهى تدقق النظر فى عينيه ثم استطردت:

- على كل حال.. عليك أن تختار ما بين بنود القانون الصماء وبين نبضات ضميرك.. و.. تركته منصرفة إلى غرفتها بعد أن حملت الطفل معها.. بينما سكن هو فى مكانه وكأنه لا يقوى على الحراك.

وبدأت مخيلته تستعيد كل أحداث الماضى فى صور متلاحقة وهو يتحاور فى صمت مع ذاته.

.. كيف يمكننى أن أفعل ذلك وأنا رجل قانون.. إنها المرة الأولى التى أختلف فيها مع نرمين..؟ لو اكتشف الأمر سوف تدمر حياتى ومستقبلى.. وإن رفضته سأعانى من عذاب ضميرى.. ووالدى هل كان سيرضيه هذا فى حياته وهو أستاذ للشريعة.. والدتى التى درست التاريخ الإسلامى هل كانت توافق؟.

يا إلهى ألهمنى الصواب.. الحيرة تمزقنى.. أنا لا أعرف أية معلومات عن أم خليل وزوجها، حتى الذين يطبقون القانون لا يعرفون شيئا عنهما.. فماذا أفعل؟.

يا إلهى.. أنت وحدك العالم ببواطن الأمور.. أنت وحدك القادر على كل شىء.. أنت وحدك الذى تهب من تشاء الذكور والإناث.. فهل ذلك الطفل هبتك لى بعد أن يئست زوجتى من الإنجاب.

يا إلهى مشيئتك فوق كل إرادة أو رغبة.. وأنت تعلم حقيقة رغبتى يا أرحم الراحمين.. و..

لم ينتبه إلى تدفق قطرات الدمع من عينيه إلا بعد أن

انسابت بغزارة فوق وجنتيه وراح بأطراف أصابعه يحاول أن يزيل آثار مدامعه، ثمه صعد درجات السلم المؤدى إلى غرفته، وهناك فتح الباب برفق ودخل بهدوء ليجد نرمين متكئة فوق الفراش بجوار الطفل النائم فى وداعة والتقت نظراتهما فى لحظة صامتة.. ثم تحول بنظرته عنها فى اتجاه الطفل وهمس من خلال ابتسامة مترقرقة فوق شفتيه:

- كيف سنخبر أخى.. وأقاربك بالأمر؟

وهنا انتفضت مسرعة إليه، وألقت بنفسها بين ذراعيه وأخذت تمطره بقبلاتها فى سعادة بالغة.. ثم قالت وهى لاهثة من شدة المفاجأة:

- أخوك لايزال فى أمريكا وسنخبره بأننى وضعت طفلا.. وكذلك أقاربى.

- لايزال فى الأمر شىء لم يحسم بعد.

تساءلت بتوجس:

- ما هو؟.

- لم نتفق بعد ماذا سنسمى وليدنا.

أجابت بلا تردد:

- طاهر . . نسميه طاهر .

ضمها برفق أكثر إلى صدره قائلا :

- اتفقنا يا أم طاهر .

تراجعت برأسها قليلا وهى تنظر إليه بحب كبير قائلة :

- عندى رغبة أخيرة . . أرجو أن تحققها لى .

- أنت تأمرين يا حبيبتى . . وأنا فقط أنفذ .

- أرغب فى الانتـــقـال بعـيـدا عـن هذا المكان الذى شاهدت فيه الحادث المشئوم .

ابتسم وهو يداعب خصلات شعرها بأنامله :

- ابتـداء من غـد سـأبحث عن مـكان آخـر ومنطقـة أخرى . . و . .

حاول أن يقبلها . . ولكنها التفتت مازحة :

- احذر أن يراك طفلنا

ثم ازدادت التصاقا بصدره .

[٤]

وكأن تواجد طاهر بين هذه الأسرة الصغيرة، هو كلمة السر التى تفتح أمامهــا أبواب السعادة والرخاء. . كانت الأمانى الجميلة تتـحقق فى تلاحق مستمر لتـعم البهجة الجمـيع، خاصة نرمين هانم بعـد أن انتقلت إلى فيلتـها الجديدة بمنطقة المعادى. . تزداد يومـا بعد يوم وعاما بعد عام إشراقا وبهجة، وهى تراقب طفولته البريئة تنمو فى هدوء لتـضيف إلى أسـبـوعه الأول منذ مـولده سنوات وسنوات لا تحـمل فى طياتـها سـوى المحبـة والخيـر. . كذلك زوجـها عـمرو الذى اختـير فى مـجال القـضاء ليصبح من أشهـر قضاة العدالة بالرغم من أنه لايزال فى عقده الرابع.

كـان طاهر وســيم الطلعـة هادىء الطـبع، بشـوش الملامح له ابتـسامة لا تشـاركه فى بهجـتهـا إلا تغريد

طيور الفجر . . ونظرة راضية حانية، لا يقابلها سوى نبضات الحب والإيمان فى قلوب أكثر المتصوفين وداعة.

حتى سليمان الشقيق الأكبر لعمرو، والعائد من أمريكا كان يحث طفليه سامى وسناء أن يقتديا بتصرفات ابن عمهما طاهر رغم أن سامى يكبره بثلاث سنوات، أما سناء فكانت تصغره بعام واحد. . وزوجته صفية كثيرا ما كانت تعبر لنرمين عن إعجابها الشديد بخلق ولدها قائلة:

- أحمد الله أننا متجاورون فى المسكن حتى يتمكن سامى وسناء من تقليد طاهر فى تصرفاته وأخلاقه.

وبطبيعة الحال كانت تلك الآراء التى تخص طاهر تثير غيرة أبناء عمه بحكم طفولتهما وكذلك لكثرة التأنيب والعقاب اللذين يلاحقانهما من والدهما سليمان، المحافظ على خصائصه الشرقية بالرغم من سنوات الغربة بعيدا عن وطنه.

وبالرغم من ازدياد ثرائه من عمله فى مجال التجارة بعد عودته، إلا أنه كان يتعمد عدم تدليلهما كثيرا خشية

أن تضيع منهما معالم شخصيتهما بعد أن انتقلا من بيئة إلى أخرى مختلفة تماما.

وهذا أيضا كان يثير حنق سامى على طاهر متصورا أنه وراء تلك المعاملة، وبأنه استقطب حب الجميع لصالحه وبسببه أيضا كان يفقد الكثير من تحقيق رغباته الطفولية، مما دفعه لأن يحمل طاهر كل أخطائه وأخطاء شقيقته كذبا وهروبا من العقاب، فإذا ما دمر لعبة جديدة أسرع يشكو لوالدته أن ابن عمه قد فعلها، وإذا سكبت شقيقته كوب الحليب فوق فراشها دون قصد، سارع ليخبر الجميع بأن طاهر هو الذى دفعها عنوة مما جعلها تفقد السيطرة على التحكم فى الكوب.

ومع هذا كانت ردود أفعال الآباء هادئة أمام تلك الأقاويل ما بين مكذبين لقائلها أو غافرين لفاعلها ولاسيما أن طاهر كان يؤثر الصمت حيال تلك التصرفات لا ينفيها حتى لا يتسبب فى عقابهما ولا يؤكدها خشية أن يكون كاذبا وهو ما لا يرضاه لنفسه، وكثيرا ما لمح لسناء عن سبب صمته وعدم فضح تصرفات شقيقها، عندما سألته فى براءة الطفولة:

- لماذا لا تخبر والدتك بالحقيقة حتى لا تغضب منك يا طاهر؟

فكان يجيبها ببراءة صادقة:

- إذا أخبرتها قد يعاقبونك أنت أيضا.

- إذن لا تخبرهم بأننى كنت معكم.

- إذا فعلت هذا سأكون كاذبا.. وأنا لا أحب الكذب.

- أخبرهم بالحقيقة، وأنا مستعدة للعقاب فى سبيل أن يتوقف سامى عن إيذائك.

انشغل عنها برهة وهو يلتقط قطعة حلوى من جيبه ثم يقتسمها معها.. قائلا:

- ربنا يرانا وهو الذى سيعاقبه.

وهكذا كانت حواراتهما البريئة.. إلى أن حدث فى ظهيرة يوم ما أن تسلق سامى شجيرة التوت التى تظلل فروعها نافذة مكتب والده بالفيلا،، وراح يتدلى من أحد فروعها القوية، جاعلا منها أرجوحة يتمايل بها شمالا ويمينا، ولم ينتبه لعودة والده من عمله وقد أخذ يراقبه بتذمر، وفجأة انكسر فرع الشجرة وسقط معها

سامى بلا إصابات بينما هرعت إليه سناء والخوف يملأ عينيها قائلة:

- ماذا سنفعل الآن.. لابد أن أبى سوف يضربك.. وقد يضربنى أنا أيضا على فعلتك.

ضحك مستهزئا.. ثم قال بلا مبالاة:

- ألم أقل لك إنك معتوهة.. لن يحدث هذا.. ولن يعاقبنا أبى.

نظرت إليه باندهاش.. ثم تساءلت:

- كيف.. وأنت كسرت فرع الشجرة؟

- كالعادة سنخبره بأن طاهر هو الذى حاول أن يتسلقها فكسر فرعها.. وكالعادة أيضا سيغفرون له خطأه.

ما كادت سناء تجيبه حتى انفلتت منها صيحة مذعورة عندما رأت أباها.. مرددة:

- أبى.. أبى:

وقبل أن يطلق سامى ساقيه للريح مهرولا فى محاولة للاختباء استوقفه والده فى حزم.. ثم اقترب منه وأمسك بطرف أذنه قائلا:

- هكذا إذن.. أكنت متصورا أن تفلت من عقابى؟!.

ومنذ ذلك اليـوم، توقـفت كل ادعـاءات سامى ضـد طاهر وبدأت عـلاقة جديدة بين الأطـفال الثلاثة تظـللها مشاعر الحب والأخوة.

ومضــت السنوات هادئة فى حيـاة الأسرتين.. حـيث أنهى طاهر دراسته فى كلية الحقوق بتقدير امتياز مما جعل عـمرو يـرحب بفكرة سـفره إلى فـرنسـا لنيل درجـتى الماجستير والدكتـوراة فى القانون على الرغم من معارضة نرمين التى عللت مـوقفها بأنهـا لا تطيق فراق ولدها.. كمـا أنهت سناء دراستها فى الجـامعة الأمريكيـة بعد أن تخـصصت فى دراسـة الأدب الإنجليزى.. بينمـا تعثـر سامى قليـلا فى دراسته ورأى والـده أن يلحقه مـعه فى العمل الحر وقد أثبت الكثير من الكفاءة فى هذا المجال.

لم يكن يخفى على أحد أفراد الأسرتين أو من المقربين لهم تلك الرابطة القـوية التى كانت تزداد يومـا بعد يوم بين طاهر وسناء، حيث تعايشـا من خلال نبضات الحب طوال سنوات عـمرهمـا، وبالرغم من اختـلاف أسلوب تفكيرهما فى كثيـر من أمور الحياة إلا أن الحب قد جمع بينهمـا استطاع أن يذلل الكثـير من المشـاكل التى كانت تعترضهما بسبب اختلاف وجهات نظر كل منهما.

كانت سناء تدور فى فلك أفكارها المتحـررة.. صريحة إلى حد التجاوز.. جريئـة فى الإعلان عن رغباتها دون حرص.. تدرك قدر فتنتها على الآخرين فلا تتحرج من أن تتباهـى بذلك.. معتزة بشـخصيتهـا إلى درجة العناد ولكنهـا كانت حـريصة كـل الحرص فى تصـرفاتهـا مع طاهر.. فكانت شـخـصيـته تبـهـرها، على الرغم من تذمرها من طريقة أسلوبه فى التعبير عن مشاعره تجاهها.

فهو يحبها حبا يفوق توقعاتها، لكنه أبدا لم يعلن ذلك صراحة، كان يبثها رحيق مشاعرة دون تبجح.. لا يخلد للنوم قبل أن يطمـئن عليها.. ولا يتجه لشـئونه قبل أن يتدارس أمـورها.. إذا انفعلت كـان أول من يهدىء من روعها، وإذا بكت كان يسابق أناملهـا ليجفف دمعها.. وإذا سعدت كان أكثر منها ابتهاجا.

إلى أن حدث ذات ليـلة أن قررت مكاشفـته بحـقيـقة مشاعـرها بناء على نصيحة من إحدى صـديقاتها، لعله يسـتجـيب لأسلوبهـا فبـادرته وهمـا فى حديقـة النادى متسائلة:

- ما هو مفهومك للحب يا طاهر؟

أجاب بلا تردد:

- الحب عطاء بلا مقابل.

فقالت بإصرار:

- ألا يفترض أن يقابل الحب بالحب؟

- أيضا قد يقابل الحب بالجفاء.

ازدادت تحديا وهى تقول:

- أيمكنك أن تحب إنسانا ما.. دون أن يبادلك نفس الإحساس أو قد تطالبه بالمزيد.

همس وكأنه يحدث نفسه:

- الحب كفيل أن يمنح الإنسان السعادة ورضا النفس.. الحب وحده يجعل للإنسان عالما خاصا به، ولا ينتظر من أحد مقابلا لذلك الإحساس.

قالت وهى مستفزة:

- أنت تسيطر عليك الرومانسية.

- أنا تلقائى فى مشاعرى ولا أحدد لها مذهبا.

- إذن أنت لا تعرف ماذا تريد.

أجاب بابتسامة هادئة:

- أنا صادق مع نفسى.

- الصدق مع نفسك لا يعطيك الحق فى أن تخفى مشاعرك تجاه الآخرين.

- أنا لا أخفيها، ولكنى لا أستبيح لنفسى إلا ما يمنح لى.

قالت بلا تردد:

- أنت تراوغ.. ولا أجد مبررا لذلك.

- أشعر برغبة فى أن أسالك عن مفهوم الحب عندك.

وكأن الفرصة قد واتتها، فأسرعت قائلة:

- الحب عندى واقع أتعايش معه.. فى كلمة دافئة.. ونظرة حانية.. و.. قبلة شافية.. الحب عندى جنون ورغبة لا تحكمها القيود.. واستمتاع باللحظة قبل أن تمضى.. وأن أنال ما أريد حتى لو كلفنى ذلك الكثير من ضراوة الصراع.

قال وهو محتفظ بهدوئه:

- لقد جعلت من الحب حربا، فيها منتصر ومهزوم

أجابت بنبرة نادمة:

- يبدو أننى التى انهزمت.

- أنا لم أحاربك قط. . ولن أفعل مع أى إنسان.

قالت وكأنها تتأهب للرحيل:

- بل قل إنك لن تفعل شيئا مطلقا.

أجاب هادئا:

- أراك منفعلة يا سناء. . ليتنى أستطيع أن أعبر لك عن حقيقة مشاعرى.

راودها إحساس بالتفاؤل وهى تقول:

- لا أطمع فى أكثر من الوضوح.

- وهل تستشعرين غموضا منى؟

أسرعت قائلة:

- نعم. . أنا حائرة. . تارة أشعر بأننى أصبحت أقرب إليك من ظلك، وتارة أخرى أجد نفسى بعيدة عنك بعد ما بين الأرض والسماء. . أريد أن أعرفك أن أفهمك. . أن. .

قاطعها برفق:

- لم أكن أتصور أننى غير مفهوم لديك إلى هذا الحد.

- إذن أخبرنى أنت عن مفهوم الحب لديك.

غاص بنظرته فى عينيها وهو يقول:

- الحب أمان وإيمان.. عطاء وفداء.. شموخ وكبرياء.. الحب يا سناء إرادة وجدانية لا تقبل الوسطاء.. أحاسيس ليست فى حاجة إلى شفعاء.. الحب حرية واقتناع.. الحب لا يقبل البدائل أو البحث عن المبررات.. الحب نبضة قد تلازم الموتى ولكنها أيضا قد لا ترافق قلوب كل الأحياء.. الحب تواؤم وتفاهم.. يتوارى أمام الصراع ويذوب راحلا عن لحظات الضياع.

همست فى سكينة:

- للمرة الثانية أشعر بالهزيمة.

قال بصدق:

- المحب لا يسعده هزيمة محبوبة.

ترقرقت ابتسامة خجل فوق شفتيها.. ثم قالت:

- ها أنا الآن أشعر كأنى أقرب إلى ظلك.

لاحقها قائلا:

- وأنا أيضا أشعر بالأمان معك.

كان الصمت يشملها فى طريق عودتهما إلى المنزل.. وكان كل منهما يسأل نفسه إن كان حقا قد استطاع أن

ينقل مشاعره إلى الآخر.. تمنت سناء أن تغوص فى أعماقه أكثر وأكثر، وأن تطمئن إلى مشاعره تجاهها.. تمنت لو استطاعت أن تبوح له بأحسيسها بوضوح.. ولكنه الحياء أو الخوف من الصدمة، أو الخواطر الكثيرة المتداخلة حالت دون ذلك.. وهو أيضا روادته رغبة شديدة فى أن يعلن لها عن مكنون وجدانه ولكنه لم يستطع.. وكأنه كان يخشى هو الآخر من ردود أفعالها أو يخاف من شرود أفكارها المتحررة: و.. قبل أن يصلا إلى منطقة مسكنهما.. بادرته قائلة:

- لقد تذكرت موعدا مع إحدى صديقاتى.. ليتك تخبرهم بأننى سأعود إلى المنزل بعد ساعتين.

أومأ برأسه بالموافقة دون أن ينطق بحرف واحد.

وما أن وصل إلى الفيلا حتى استقبله حارسها «فى انزعاج» قائلا:

- الهانم والبك الكبير فى المستشفى.

هناك كانت زوجة عمه هى أول من رآها.. حيث بادرته والدموع تملأ جفونها:

- ابن عمك تعرض لحادث وهو يقود سيارته بسرعة..

ولدى سيموت.. لقد حذرته مرارا من القيادة السريعة.. يا إلهى ماذا أفعل؟

وقبل أن يجيبها ظهر عمه وهو يلهث فى ارتباك شديد مردداً:

- سامى فى حاجة إلى نقل دم.. نزف بشدة.. الأطباء يبحثون عن فصيلة دم تناظر فصيلته.

فى سكينة تامة تحرك طاهر بهدوء إلى حيث تجمع الأطباء فى غرفتهم.. وطرق الباب ثم قال لأحدهم:

- أنا طاهر عمرو ابن عم سامى المصاب.. وفصيلة دمى تسمح بأن تعطى لكل الفصائل.

وفى دقائق تكاد تسابق الزمن، تمت كافة الإجراءات اللازمة لطاهر من تحاليل طبية للتأكد من صحة معلوماته وسرعان ما استقر فوق فراش مجاور لابن عمه وامتدت الأنابيب المطاطية وكأنها قنطرة الحياة بين ذراعى طاهر وسامى لتسحب الدماء من الأول وتصب فى أوردة الثانى.

والأطباء يلتفون حولهما فى ترقب شديد وهم يتابعون مسيرة نبضات القلبين ورحلة الأنفاس فى الرئتين.

تجمعت الأسـرتان خارج غرفة العمليـات، والشحوب يسيطر على وجـوههم خاصة سناء التـى روعتها صـدمة النبأ المفاجىء واستقرت بينهم متهالكة، مما دفع عمها إلى أن يبادرها قائلا:

- سناء يا ابنتى سـيكون كل شيء على مـا يرام.. أنا أخشى عليك من الانهيار.

لم تجبه واكتفت بنظرة توسل إلى لا شيء.

بينما اقتربت نرمين من صفية وراحت تربت على كتفها وهى تقول:

- الله مـوجود وهو رحـيم بعبـاده.. فلا تيـأسى من رحمة الله.

- أنا لست يائسة من رحـمة الله.. ولكنى غيـر واثقة من قدرتى على التحمل.. و..

فجأة ظهر أحـد الأطباء، والابتسامة تعلو شفـتيه قائلا بنبرة راضية:

- أوقعنا الشابان فى حيرة من أمرنا.. كدنا لا نستطيع التميـيز بين المصاب وبين السليم فكلاهما بصحـة جيدة وقد أزعجانا من كثرة ثرثرتهما.

وهنا اختلطت صيحات الجميع ما بين الدعاء والشكر والتعبير عن الفرحة والابتهاج.

ثم أردف الطبيب قائلا:

- لو سمحتم ادخلوا إليهما لكى يطمئنا عليكم وكذلك ترحمونا من ثرثرتهما.

تسابق الجميع، إلى داخل الغرفة ليفاجأوا بسامى وطاهر وهما يتبادلان الضحكات والأحاديث الطريفة مع مجموعة الأطباء.. وما إن شعرا بقدومهم حتى أسرع سامى قائلا بصوت خفيض:

- لم أكن أتصور أن دماء ابن عمى خفيفة الظل إلى هذه الدرجة.. فكلما تسللت قطراته إلى عروقى شعرت برغبة كبيرة فى الضحك.

واشترك الجميع فى ضحكاتهم وهم يرددون..

.. حمدا لله على سلامتكما.

.. ما أعظمك يا إلهى.

.. حذار من السرعة مرة أخرى.

.. كم كنت شجاعا يا طاهر.

وهنا أشار طاهر إلى سناء يطلب منها الاقتراب منه..

وعندما دنت من وجهه همس إليها قائلا:

- أعتقد أننا لم نستكمل حوارنا بعد.. فعندى ما أريد أن أخبرك به.

تأملته صامتة وهى ترقب حركة شفتيه.. فرفع رأسه قليلا إلى أعلى ليزداد اقترابا من أذنيها هامسا:

- أحبك.. أحبك بكل قطرات دمى.

كادت أن تنسى وجودهم، وتغمره بقبلاتها لولا أن صاح سامى ضاحكا وكأنه ينبهها:

- نحن هنا.. انتظرا الحين التأكد من شفائى وفى سعادة بالغة تدخل والده فى الحوار قائلا:

- نعم ستكون الفرحة بالمناسبتين.. بشفائك وبخطوبة سناء لابن عمك طاهر.

ومن خلال تعانق صفية ونرمين، ومصافحة عمرو لشقيقه ارتسمت أسارير الدهشة على وجهى طاهر وسناء بعد أن اكتشفا فجأة أن الجميع يدركون طبيعة العلاقة بينهما وهما لا يدريان.

[٥]

استقـرت هيئة المحكمة وراء منصة الـعدالة، يتوسطهم المستشار عـمرو عبدالحميد وهو يتفـحص أوراق القضية رقم ٧٠٠٠ جنايات أسيـوط المتهم فيـها المدعو فـهمى بطرس ملاك بقتل صموئيل غبريال أخذاً بالثأر عمداً مع سبق الاصرار والترصد.

كانت قاعة المحكمة تضم حـشداً كبيراً من الأقارب.. وبالرغم من ذلك كـان الصمت وحـده هو سيـد المكان حيث اشتهر المستشار عمرو عبدالحميد بالصرامة والجدية ولم يكن يسمح قط بأية ضوضاء أو أحاديث جانبية أثناء تأدية واجبه.

وبعد أن انتـهى من تصفح العديد من الأوراق أمـامه، التفت تجاه المتـهم القابع خلف القضبـان الحديدية داخل القاعة ثم قال موجها الحديث إليه بهدوء:

- أنت متهم يافهمى بقتل صموئيل غبريال عمداً مع سبق الإصرار والترصد، عندما اختبأت داخل أعواد القصب وأطلقت عليه الأعيرة النارية من بندقيتك الخاصة وأرديته قتيلا، وقد تم التحفظ على البندقية والقبض عليك فى مساء يوم الأربعاء الموافق ٦/ ٥/ ١٩٩٢ . . هل لديك ما تقوله؟

وبنبرة جافة ردد المتهم قائلاً:

- لم يحدث . . ماحصلش.

عاود المستشار تفحص الأوراق أمامه ثم قال:

- ولكنك اعترفت فى تحقيقات المباحث وأكدت اعترافاتك فى النيابة.

وبإصرار أجاب المتهم:

- ماحصلش ياسعادة البيه.

مرة أخرى يسأله:

- أليس بينك وبين القتيل مشاكل ثأرية قديمة . . وهو مثبت فى العديد من القضايا التى بين عائلتك وعائلته . . هل لديك ما تضيفه. ونظر إليه بترقب.

وهنا توقف كل شىء فى حياة المستشار عمرو

عبدالحميد.. وكأنها لحظة الموت.. ارتجفت كل خلجات كيانه ثم تحجرت فجأة.. وثبتت نظرته تجاه المتهم وطالت وكأنه راح فى غـيبـوبة فقـدان الذاكرة.. لم يعـد يقوى على مواصلة المحاكمـة أو الالتفات فى اتجاه آخر.. كل شىء خضع للحظة الترقب.

ردد فى أعماقه:

- مستحيل!

فهمى بطرس ملاك.. إنه يذكره جيداً.. عشرون عاماً لم تزده سوى شعيرات بيضاء تناثرت فوق رأسه.. نفس الملامح القـاسـيـة.. والنظرة المـتـوترة.. نفس طريقـة ملابسـه.. حتى نبرات صـوته الجافة لازالت تتـتابع فى أذنيـه.. يوم طرق باب فيلتـه منذ عشـرين عامـاً يطلب النجدة من أجل أم خليل.

ياإلهى فهمى بطرس ملاك شقـيق أبو خليل.. مسيحى.. الأب الحقيقى لطاهر.. ابنى طاهر.

فى هذه ا لأثناء كان فهمى غائصاً فى الماضى البعيد.. نفس اللحظة المرعبة.. عيون الصقر.. تذكر تلك النظرة القاسية التى توقف أمامهـا منذ عشرين عاماً.. امتزجت

داخله أشـتات من ا لمشاعـر المضطربة.. لم يعـد يعرف لأى منهم يسـعى.. إحسـاس بالخـوف من لحظة النطق بالحكم ذاب فى جوف الآمال العـريضة التى طفت إلى سطح مـخيلته.. مـا أعجـبهـا تلك اللحظة وهى تضم البشرى لعـودة وليدهم الغائب واكتشاف مـقر المفقود.. كمـا أنهـا تضم رائحة الموت وهى تفـوح من بين سطور القضـية.. لحظة استـقرت فيهـا كل تناقضات الحـياة.. الخـير والشـر، الفـرح والحزن، الأمل واليـأس، الموت والحياة، الإجرام والوداعة.. لحظة جـمعت ما بين منصة العدالة ونبـضات الجريمة.. بل جـعلت الجريمة تطل من وراء منصة الـعدل.. وجعلت من المجـرم قاضـياً يشـير بأصبع الاتهام من خلف القضبان.

لحظة صارخة تكاد تستنطق الزمن ليعلن أن للأقدار الكلمة العليا، لتكشف سراً من أسرار الحياة.. وما أكثرها.

وبصعوبة بالغة ردد المستشار عمرو عبدالحميد قائلاً:

- تحـجز الـقضـيـة للنطق بالحكم فى جلسـة الثـلاثاء ٦/٦/١٩٩٣ وصاح الحاجب وكـأنه فارس الانقاذ دون أن يدرى:

رفعت الجلسة

لم يكن من العسير على نرمين أن تلحظ التغيرات التى طرأت على ملامحه عند عودته إلى المنزل.. اصفرار وجهه والوجوم الشارد.. والنظرات الزائغة تكاد الحيرة أن تنطق صارخة.. حاصرته بأسئلتها .. تريد أن تعلم سبب توتره.. هو أيضاً لم يكن لديه القدرة ولا الشجاعة لكى يتكتم الأمر.

صارحها بالحقيقة.. صرخت من هول المفاجأة.. شعرت بالأرض تميد من تحت قدميها.. انسحبت الدماء من رأسها، كادت أن تفقد وعيها.. لم يحاول أن يهدىء من روعها، وكأنه أراد أن يزيقها من نفس الكأس الذى تجرعه عندما اكتشف الحقيقة.

أراد أن تشاركه الألم، كما شاركته فى جريمة الماضى.

ردت بلا إرادة:

- مستحيل!

قال وكأنه يحدث نفسه:

- إنها عدالة السماء.

أحست بتوجس تجاهه.. وتمتمت:

- على كل حال «كل مولود يولد على الفطرة»

وصلتها همسته كالصاعقة، عندما همس قائلاً:

- وطاهر؟!

تسمرت فجأة وهى تتساءل:

- ماذا بطاهر.. ما الذى تقصده؟

- لست أدرى.. كل شىء أمامى بات متداخلاً.. لا أعرف حقيقة شعورى بالضبط.. أحسست فى لحظة اننى لست قاضياً بل مجرماً.. أشعر بالخوف من أن أفقد ولدى الوحيد.

قاطعته بعد أن تمالكت.. وقالت:

- ولدنا بخير.. وعليك أن تنسى الموضوع تماماً.. علينا أن نفكر فى ترتيبات زواجه. كما اننى اقتنعت بفكرة سفره لحصوله على درجة الدكتوراة.

- لست أدرى لازلت أشعر بالغموض، والخوف مما يخبئه القدر .. نظرة الرجل لى كادت أن تفقأ عينى، يخيل إلى أنه عرفنى.

حاولت تهدئته قائلة:

- ما هذا الهراء.. كيف لرجل فى مثل ظروفه ينشغل عن هواجسه ليتفحص ملامحك.. رجل ينتظر حكم

الإعدام لابد أنه فى حالة من الارتباك الشديد ولا يمكنه التركيز على شيء.

قال وهو يتأهب للانصراف من أمامها:

- لتكن إرادة الله ما تكون.. هو وحده الذى يعلم دوافعنا.. وهو القادر على كل شيء.

وكأنها تنتظر لحظة انصرافه بفارغ الصبر.. وما كاد يفعل حتى تهاوت على المقعد فى شكل السقوط.

ودست رأسها بين كفيها، وكأنها تحاول إخفاء الحقيقة من أمامها.. تمنت لو كان الأمر مجرد كابوس سوف تفيق منه بعد لحظات.. حلم.. هاجس قوى.. خيالاً.. سراب.. تمنت كل ذلك إلا أن تكون الحقيقة ولكنها الحقيقة.. الحقيقة التى جعلت قلبها ينتفض هلعاً بين ضلوعها.. أنفاسها تتلاحق بقوة واضطراب.. الحقيقة التى هزت كيانها أمام هجمات أحاسيس الخوف من المجهول.. إنها تتصور أن تفقد جزءاً من جسدها على أن تفقد ولدها الحبيب.. تفقد حياتها ولكن هو لا.. سحبتها ذكريات الماضى قبل عشرين عاماً سابقة تذكرته وهو رضيع لا حول له ولا قوة.. وهو يحبو..

تذكـرت يوم أن نطق أول مـرة وناداها. . ماما. . وأول ذهابه إلى الحضانة. . وكيف كـان ولايزال مسالماً عطوفاً عليها وعلى الآخرين. . تذكـرت نموه أمامها وهى تزهو به عاماً بعد عام.

تذكرت لحظتها الحالية فراحت تجهش فى بكاء مرير.

فى مساء اليـوم التالى تقدمت عاملة المنزل تجـاه عمرو الجـالس وراء مكتبـه يتـابع بعض أوراق القضـايا. . ثم قالت بتأدب.

- يوجد شخص بالخارج يصر على مقابلة سعادتك.

تساءل بلا مبالاة:

- ألم يقل لك ماذا يريد؟

- لا. . فـهو ضـخم ويرتدى جلبـاباً ويخـفى نصف وجـهـه بوشـاح صـوف. . لم يقل غـيـر إنه من طرف شخص يدعى فهمى.

وما كـادت تذكر الاسم حـتى انتفض عـمرو و اقـفاً وكأنه أصيب؛ بطعنة سكين حادة فى صدره.

وردد مسرعاً:

- أدخليه. . أدخليه فوراً.

غابت لحظات.. لتعود بعـدها برفقة الرجل إلى داخل المكتب.. تأمله بـرهة.. كان ضـخم البنيـة له مـلامح صارمة وشارب كثيف.

همس متماسكاً:

- انصرفى الآن واغلقى الـباب جيـداً.. ونظر بترقب إلى الرجل بعد أن أصبحا منفردين.. وقال:

- علمت أنك تريد مقابلتى.. من أنت؟

جلس الرجل أمـام مكتبه دون اسـتئـذان.. ثم أجاب بصوت أجش:

- أنا مـرسال مـن طرف فهـمى بطرس مـلاك.. ولد عمى..

ازدرد ريقه، فى محـاولة لابتلاع اضطرابه.. ثم تساءل فى ادعاء:

- من هو فهمى بطرس ملاك.

أجاب الرجل بحزم:

- الرجل الذى سـتـحكم فى قـضـيتـه.. جلسـة ٦/٦/١٩٩٣.. عم مـيخـائيل.. الذى أسـميـتمـوه، طاهر.

جاهد فى أن يكون حازماً . . وهو يقول:

- ما الذى تقوله يارجل؟

أجاب الرجل فى هدوء غير متوقع:

- اسمع ياسعادة البيه . . أنا جئت إلى هنا لأبلغك برسالة، وبتفاصيل قد تكون غائبة عنك . . وأنت فى النهاية صاحب القرار.

لم يمهله فرصة للرد . . واستطرد مسترسلا:

- أنت تذكر طبعاً أبو خليل الذى كان يجاوركم فى السكن عند منطقة النزهة الجديدة منذ عشرين سنة . . إبراهيم أبو خليل لم يكن هارباً من حكم ولم يكن مجرماً ولكنه كان يختبىء قليلاً استعداداً للأخذ بثأره من إ حدى العائلات حدانا . . وأنت تذكر أن فهمى كان يزورهما مرة كل شهر تقريباً، لينقل إليه أخبار البلد . . أبو خليل لم يكن فقيراً ولا معدماً . . كان عنده أطيان وبهائم . . ولهذا كانت فرحته لا توصف عندما أنجب الولد وسارع باستخراج شهادة الميلاد للولد سماه ميخائيل . . وأعطاها لفهمى لينقل البشرى لأهله فى أسيوط . . كان عمر الولد أسبوع تقريباً . . وحدثت

الحادثة إياها.. وحضر فهمى إلى القاهرة كالعادة.. وبحث عن أخيه.. وعلم بما حدث وأسرع إلى المشرحة فتبين أن لا وجود لجثة الطفل.. كان يعلم أنه طرفكم منذ الأيام الأولى أسرع إليكم فلم يجدكم.. بحث عنكم فى كل مكان ولكنه لم يجدكم..

دس يده فى فتحة الصديرى، وتناول ورقة ومدها إليه قائلاً بثبات:

- وهذه شهادة ميلاد ميخائيل.

تناولها عمرو بأصابع مرتجفة.. وتأملها بلا وعى ثم همس بصعوبة قائلاً:

- ولكن... طاهر ابنى.. أنا الذى ربيته وعلمته ومنحته اسمى.. أنا

قاطعه الرجل بحدة قائلاً:

- من حقك أن تقول ما تشاء.. ولكنك تعلم أن الولد ولدنا.. ومستحيل أن نفرط فى لحمنا.

وفى لحظة تغيرت نبرة صوته وهو يستطرد قائلاً:

- لكن.. مادام حدث ما حدث.. ومشيئة الرب كانت وراء ذلك، فنحن لا نملك غير التفكير.

انفـرجت أسـارير عمـرو قليـلاً. . وانتظمت أنفـاسـه المخنوقة ثم تساءل بحذر:

- إذن ماذا تريد؟

أجاب الرجل ضاحكاً بخشونة:

- أنا لا أريد شيـئاً ياسعـادة البيه. . ولكن فـهمى هو الذى يريد.

- تريدون مالاً. . أنا يمكننى أن. .

قاطعه الرجل وقد تقلصت أساريره:

- قلت لك يابيه إننا أثرياء. . ميخـائيل نفسه من حقه كل أطيان أبوه

كرر مرة ثانية:

- إذن ماذا تريدون؟

- قلت لك فهمى هو الذى يريد.

تساءل فى توجس:

- وماذا يريد فهمى؟

أجاب الرجل بهدوء مثير:

- البراءة:

انتقض عمرو مذعوراً.. ثم قال:

- ماذا تقول.. البراءة.. مستحيل أن..

ومرة ثانية يقاطعه الرجل بهدوء حذر:

- إهدأ يابيه.. وفكر جيداً.

حاول عمرو أن يتماسك وهو يقول:

- وإذا رفضت؟

نهض الرجل فجأة وقال:

- نحن نطالب مرة واحدة.. فإما البراءة.. وإما أن نكشف الحقيقة لميخائيل أو لطاهر كما تسمونه.. ولكل المحيطين بكم وبه.. وللمسئولين أيضاً.. والسلام عليكم.

وانصرف الرجل.. تاركاً عمرو يقف مذهولاً لا يقوى على الحركة.

[٦]

المستشار عمرو عبـدالحميد.. القاضى.. المحقق رجل القانون.. كلمة العدالة.. ضمير الإنسان.. وجد نفسه فجأة أمام مأزق لا دنيوى.. أمام قضية تفوق كل خبراته السابقـة، واجتهاداته الدراسـية.. هكذا وجد المستـشار عمرو أنه أصبح متهماً لا قـاضياً.. مذنباً لا بريئاً عاجزاً لا قوياً.. شيطاناً لا ملاكاً.. كان الموقف أكبر بكثير من قدرة تحمله.. أحس بالفـزع لأول مرة فى حياته.. هل مـاتت الأحـلام فى جـوف تلك اللـحظة؟ هل غـربت شـمس الحيـاة إلى الأبد؟ هل رحلت الأمـانى وتوارت الثوانى من حقبة الزمن؟ هل سيفقد ولده الوحيد؟

من أجل هذا لم يسـتطع أن يخفى كل تلـك المخاوف والهواجس مع مرور الأيام.. كمـا لم يكن عسيراً على نرمين أن تلحظ تلك التغيرات على زوجـها الحبيب..

رأته شارداً حائراً أحـسته كهـلاً وهو فى أوج نضوجه. . ضـئيـلاً وهو عـمـلاق المنصـة. . متـردداً وهو حـاسم الكلمة. . مـرتاعاً وهو فى قمـة الشجاعـة. . أحست به مختلفاً ومرتبكاً.

وبادرته متسائلة:

- ماذا بك ياعمرو؟

أجاب بلا تردد:

- لقد صدق ظنى.

همست ببراءة:

- لا أفهمك ياحبيبى.

التفت نحوها وهو منهار قائلاً:

- لقد تذكرنى كما تذكرته.

- من هو؟

قال بحسرة مكتومة:

- فهمى بطرس ملاك.

- من ذلك الرجل؟

تحرك بركان العذاب فى جوفه يصرخ قائلاً:

- إنه عم «ميخائيل».. أتعلـمين من هو «ميخائيل».. هو «طاهر» ابنك.. ابننا «طاهر» اسمه «ميخائيل» . هل أدركت الآن لماذا أنا شارد الذهن وزاهد اللحظة؟!

قالت وهى تبدو هادئة جداً:

- لازلت لا أفهمك.

أجاب فى انكسار:

- لقـد جاءنى رجل منذ عـدة أيام وراح يسـاومنى من أجل حقيقة ثابتة.. فإما أن أخالف ضميرى وإما أن أفقد ولدى.

وقبل أن تزيد من تساؤلاتها، استطرد قائلاً:

- لقـد خيـرنى.. إذا لم أحكم بالبـراءة لصـالح العم القاتل فإنه سوف يبوح بالسر لكل الناس وسأفقد ابنى.. طاهر.. الذى عشت حياتى كلها من أجله.

وقـفت أمامـه وكـأنها جـبل قـد شمخ فـوق الأرض فجأة.. ثم قالت:

- وماذا فى الأمر؟

- إنه يطلب البراءة.. وهو قاتل..

همست بلا مبالاة:

- أعطه البراءة

صرخ دون إرادة..

- أعطيه البراءة.. وهو قائل؟

أجابت بتهكم مستتر:

- خير لك من أن تفقد ابنك الوحيد ولأول مرة يغلظ لها القول.

- وكأنك حواء التى أخرجت آدم من الجنة

نظرت إليه بقسوة قائلة:

- أنا أم

قال دون أن يدرى:

- أنت شيطانة

- إذا كانت المرأة هى الشيطانة.. فهى أم البشرية هى أم الرجل واخته وابنته.. والطفل والعجوز.. هى أم الكهل والصبى.. هى كل شىء.. هى مبدأ الأشياء.. هى محصلة الكون.. فإذا كانت هى بحق شيطانة.. فكلكم شياطين.. واقتربت منه كالفهد الجائع قائلة:

- لو اقتضى الأمر بأن أقتلك.. فسوف أقتلك.

وعادت صارخة:

- إلا ابنى.. لن أدع أحداً يقترب منه بسوء.

وكأن الفرصة واتته فى فـرفع يده اليمنى وأسقطها على وجهها بقوة فى صفعة قوية قائلاً:

- كفاك ما تقولين.. أنت تدمريننى.. أنت..

سقط على الأرض فى غيبوبة تامة.

ألقت بنفسها فوقه صارخة:

- لا.. لا تمت ياحبيبى.

وصرخت صرخة الموت.. عالية فى صداها هامسة فى صدرها.. كـانت صرختهـا مجلجلة، بقدر مـا أفزعت طاهر من نومه.. وأسرع يهبـط درجات السلم إليها وهو يردد فزعاً:

- أبى.. ماذا بك ياأبى..

والتفت إلى أمه متسائلاً:

- ماذا حدث لأبى..؟

تبدلت فى لحظة.. أبدت قوة وصلابة وهى تقول:

- أبوك بخير.

وقبل أن يسـترسل طاهر فى تسـاؤلاته، رفع المستـشار عمرو عبدالحميد رأسه قائلاً:

- لا تخف ياولدى.. فأنا بخير.

قالت نرمين بحنان:

- اذهب أنت ياطاهر لتنام.. فكل شىء على ما يرام.

لم يزل طاهر متشبثاً بأكتاف أبيه وهو يقول:

- هل أستدعى لك الطبيب؟

قال الرجل:

- لا داعى إلى ذلك.

شعر طاهر تجاه الموقف المفاجىء بشىء من الاطمئنان واستدار متجهاً إلى التليفون ليستدعى الطبيب.. بينما تحامل المستشار عمرو على نفسه وحاول الصعود إلى غرفته متكئاً على كتف نرمين بصعوبة بالغة.

مضت نصف ساعة أو يزيد قليلاً، قبل أن يحضر طبيب العائلة ومعه آخران.

كانت الدقائق عصيبة، والأطباء الثلاثة يمثلون كونصولتو حول الرجل المستسلم تماماً لهم.. بينما كانت زوجته تروح وتغدو خارج الغرفة والقلق يسيطر على كل خلجة فى كيانها.. وطاهر قابع فى سكينة فوق مقعد قريب يتابع أمه الملتاعة وهو صامت فى اطمئنان

غريب.. مستسلم لإرادة الله.. فبدا مطمئناً على غير العادة فى مثل تلك المواقف بالنسبة للآخرين وما إن ظهر الطبيب المعروف لديهم حتى بادرته نرمين متسائلة فى لهفة:

- ماذا فى الأمر يادكتور؟

- اطمئنى يانرمين هانم.. المسألة ليست بالخطورة التى تجعلك فى مثل هذه الحالة.. ثم..

ولكنه توقف عندما تبعه الاثنان المرافقان له.. فالتفت إليهما برهة، واستأنف الحديث مع نرمين قائلاً:

أقدم إليك الدكتور بهاء الدين إخصائى القلب المعروف.. وأشار تجاه الثانى مستطرداً:

- الدكتور عاطف إميل إخصائى الأوعية الدموية

قالت فى اضطراب:

- طمئنونى من فضلكم.

فأجاب الدكتور بهاء بهدوء شديد.

- الحمد لله.. حالته مطمئنة جداً

ثم لاحقه الدكتور عاطف إميل فى سماحة:

- لقد حماه الرب من أية مخاطر.

وهنا تدخل طبيب العائلة قائلاً:

- يجب أن تصدقينى.. فهو بخير.. و

اتجه. نحـو طاهر الذى نهض مسالماً فى ملامح راضـية وقبل أن يتفوه الطبيب بكلمة، سارع قائلاً:

- أنا لا أملك غير الشكر لك

ابتسم الطبيب فى بشاشة ثم قال:

- من ينجب طاهراً فكيف يكون هو إذن!

وربت على كتفه بحنان.. ثم انصرف مع الطبيبين

بينما همس المستشار عمرو قائلاً لهما:

- أتركونى أنام قليلاً.

ولكنه لـم ينم.. كـان الليـل طويلاً، مملاً.. أدرك أن كوابيس اليقظة أقسى ضراوة من الأحلام المزعجة.

كـيف يتسنى لـه أن يفاضل بين ضـمـيره وإحـساسـه بالأبوة.. بين القيم والمبـادىء وبين واجبه تجـاه إنسان لا ذنب له فى الحـيـاة غـيـر أنـه جـاء فى ظروف غـريبـة وغامضة.

الحيـرة تزلزل كيانه.. هل يسـتسلم للمسـاومة فيفـقد وجوده؟ هل يقاوم ويفقد ولده بالتبنى؟.. فجأة تلاحقت

صور والده رجل الشريعة والقانون ووالدته أستاذة التاريخ الإسلامى وزوجته خريجة الحقوق.. وكذلك صورة طاهر.. أو ميخائيل وغلبه النعاس بعد أن غلبه القهر.

توالت الأيام وهى تحمل فى طياتها كل الحذر.. خاصة نرمين التى دأبت على مراقبة زوجها فى كل تحركاته، وراحت تلاحقه بكل أساليب الإقناع.. تارة فى رقة مغلفة بالتوسل وأخرى بالوعيد المستتر. كما تعمدت أن تفصح عن رغبتها لطاهر تحثه على السفر مبدية تشجيعها ورضاها.. غير مبالية بنظرات الدهشة من جانب طاهر، لهذا الالحاح المفاجىء.. مما دفعه لأن يسألها قائلاً:

- ما الذى غير رأيك ياأمى بالنسبة لسفرى؟

أجابت فى رضا وسكينة:

- مستقبلك أهم من أى شىء يابنى.. فأنت عندى أغلى شىء فى الوجود.

- ولكنك كنت رافضة تماماً لتلك الفكرة.

- كنت مخطئة.. وليس عيباً أن أتراجع عن خطئى.

اقترب منها وربت على كتفها بحنان صادق.. ثم قال:

- أنت ملاك ياأمـى . . والملائكة لا تعرف الخطيـئة ولا الخطأ .

لم تتمـالك نفسهـا، وأخذته إلى صدرها وهى تضـمه بقـوة وكـأنهـا تمنت فى تلك الـلحظة أن تشق صـدرها وتخفيه بداخلها لعلها تحميه من مفاجآت الليالى .

همس إليها وهو مستسلم لعناقها :

- أنت أعظـم أم فى الوجـــود . . لســت أدرى لو لم تكونى أمى فماذا كان سيصبح حالى . .

ولكنها قاطعته وهى تمسك بكتفيه وتهزه بانفعال قائلة :

- لا تقل هذا . . فـأنا أمـك الوحـيـدة . . وأنت ابنى الوحيد .

لاحظ دموعها تنـساب بين جفنيها . . فتسـاءل فى طيبة ودهشة :

- مـا الذى يبكيك ياغالـية . . إذا كنت لا ترغـبين فى سفرى فلن أفعل .

حاولت أن تتماسك، وقالت بثقة :

- لا . . لابد أن تسـافـر فأنا فـخـورة بك وأريدك فى أعظم مكان

قال مازحاً:

- لن أصدق إلا إذا ابتسمت.

و.. ابتسمت.

ولكنها كابتسامة الشهيد الذى يلمح بريق الانتصار قبل غفوة الموت.

وبدأ الزمن فى طريقه.. ودقات الساعة تدق كطبول الحرب وهى تسحب معها الليالى والأيام.

إلى أن جاء اليوم الموعود.. ٦/٦/١٩٩٣ هو تاريخ النطق بالحكم فى القضية المنتظرة. اليوم الذى ترقبته الأفئدة بكل الهلع والخوف من المصير المجهول.

جلس المستشار عمرو عبدالحميد وراء منصة العدل، متوسطاً باقى هيئة المحكمة.. وقد احتشد جمع كثير وهم يحتبسون أنفاسهم فوق مقاعدهم.. بينما قبع فهمى بطرس وراء القضبان ينظر إلى لا شيء وقد انسحبت الدماء من وجهه.. والسكون يسيطر على القاعة بأكملها.. الجميع فى لحظة ترقب.. بينما لم يحتمل المرسال توتر الموقف، فحاول النهوض قليلاً من فوق مقعده، وكأنه يلفت نظر القاضى إليه لعله يتذكرتحذيره

ووعيده له. . أو لعله يتراجع لو كان ينوى شيئاً على غير هوى المتهم. ولكنه عـاود الجلوس مسرعـاً عندما لاحظ نظرة عمرو عبدالحميد إليه، وكأنه يخصه هو بالذات فى هذه القـاعة. . فلم يحـتـمل عيـون الصقـر. . أو نظرة الاصرار فازداد تراخياً فوق المقعد وكأنه يحاول أن يخفى نفـسه. . وتعلقت الأبصـار تجاه المنصـة فى اللحظة التى التفت المستشار عمرو تجاه المتهم وأطال النظر إليه وكأنهما فى حديث صامت طويل. ثم عـاد إلى الملف أمامه قائلاً بصوت مرتفع، وكأنه يرغب فى أن تسمع الدنيا قراره.

حكمت المحكمـة حضـورياً فى القـضيـة رقم ٧٠٠٠ جنايات والمتهم فيها المدعو فهمى بطرس ملاك بالإعدام.

وهنا ضجت القاعة بالصيحـات الثائرة والغاضبة، بينما ارتفع صـوت فهـمى بطرس مجلجـلاً فى هياج شـديد قائلاً:

- ستدفع ثمن فعلتك ياظالم.

وتلاحقات أصوات أقاربه من كل اتجاه.

- أنت المذنب

- لن نتركك تفلت من العقاب

- أين ستهرب من ضميرك

- نريد ولدنا.

وتحرك المستشار عمرو عبدالحميد من وراء المنصة فى ثبات، واللعنات تلاحقه حتى دخل إلى استراحة القضاء، وجلس على مقعده بعد أن أغلق الباب دونه ثم رفع رأسه إلى أعلى، وقد ترقرقت الدموع فى جفنيه وهمس متردداً:

- اللهم لا أسألك رد القضاء ولكنى أسألك اللطف فيه.

[٧]

وكأنه قد مسه الجنون فجأة وهو يـقود سيارته بهوجائية مميتـة راح سليمـان عبـدالحمـيد يحـدث نفســه بصوت مرتفع، وهو في طريقه إلى فيلته مردداً:

مستحيل.. مستحيل!

سترك يارب.

سناء.. ابنتى سناء

معقول هذا.. أخى يخدعنى!

وعند وصوله إلى بوابة الفـيلا هبط من سيـارته وكأنه يقفز وأسرع إلى الـداخل وهو يصيح بأعلى صوته منادياً على زوجـته صـفيـة، التى هرعت إليـه وهى منفزعـة متسائلة:

- ماذا بك ياسليمان.. ماذا حدث؟

ألقى بنفسه على المقعد وهو يلهث من الانفعال.. ثم قال:

- مصيبة.. مصيبة.. لقد

لكنه صمت برهة، حاول فيها استعادة توازنه.. ثم ردد وكأنه يحدث نفسه:

- لقد كانت ستصبح مصيبة.. بل كارثة.. القدر وحده هو الذى كشف الحقيقة.

صاحت صفية وهى ترتجف من هول الغموض قائلة:

- أخبرنى ماذا حدث، لقد أفزعتنى يارجل.

أخذ يفك ربطة عنقه بتوتر، بعد ما شق عليه الاختناق.. ثم قال وكأنه يهذى:

- تصورى.. أخى كان يخدعنى.. لا.. كاد أن يخدعنى.. لقد علمت كل شىء منذ نصف ساعة فقط.. ابنتى كادت تتزوج من ميخائيل.. وبعلم من أخى.. انه

قاطعته بحدة وهى تقول:

- ما هذا الهذيان.. ماذا تقول.. ومن هو ميخائيل الذى سوف تتزوجه ابنتنا؟

أجاب بعد أن ازدرد ريقه:

- عليك أولاً أن تتمالكى أعـصابك.. اجلسى وكونى هادئة.

جلست والغيظ يتأجج فى عينيها.. ثم قالت:

هاأنا منصتة.. ماذا فى الأمر؟!

هدأت نبرة صوته قليلاً وهو يقول:

- ميخائيل.. هو طاهر ابن عـمرو.. أقصد الذى كان يدعى أنه ابنه.. لقد جـاءنى رجل فى مكتبى.. وحكى لى قصة طاهر بالكامل.. وكيف اختطفـه عمرو وزوجته من عائلته بعد أن مـات أبواه فى الحريق.. ولقد أعطانى صور الأوراق التى تثبت ذلك..

وتناول من جـيب سترته بعـض الأوراق، وأخذ يلوح بها وهو يردد:

- هذه محاضـر الشرطة.. وشهادة الميـلاد.. وشهادة الوفاة الخاصة بالوالدين.. وأخبرنى بقصة لقائه مع عمرو وقصة المتهم فهمى بطـرس ملاك.. عم ميخائيل.. وما دار بينهمـا.. لقد كان يعلم بالحـقيقة وأخـفاها عنى.. أخى حا ول أن يخدعنى.. أخى لم ينجب قط.. عائلة

طاهر أقـصد مـيـخائيل مـوجـودة فى أسيـوط . . كلهم سيـثأرون من عمـرو . . ابنتى سناء كانت ستـدفع الثمن اللهم ارحمنا . . اللهم ما ارحمنا .

انتفضت صفية ، وصرخت وهى فى ذهولها :

- ماذا تقـول؟ طاهر مسيـحى . . نرمين لم تلد . . هذا الرجل با لتأكيد كاذب . . مستحيل أن

ولكنه قاطعها وهو يمد إليها يده بالأوراق قائلاً :

- لقد تأكـدت من الحقيـقة . . والرجل غيـر كاذب . . خذى الأوراق وأقرئيـها جيداً . . وتذكـرى تاريخ عودتنا من أمريكا .

تناولت الأوراق بيد مرتعشة ، وراحت تتصفحها بدقة وكل أسارير وجهها تـتبدل بين الآونة والأخرى . . وما إن انتـهت من قراءتهـا حـتى صرخت بـأعلى صوتهـا قائلة :

- مستحيل . . سناء أين أنت ياسناء

وانطلقـت كـالهـــاربة من الطوفـــان وهى لازالت فى صرخاتهـا تصعد درجات سلم الفيـلا . . بينما . . حاول سليمان أن يستوقفها صارخاً :

- تمهلى يـامـجنونـة.. انتظرى لنرى مـاذا سنفـعل بحكمة.

ولكنهـا؛ لـم تسـتطع تمالك نفـسـهـا وهى تزيد من صيـاحهـا، حتى أن سـامى ولدها كاد يسـقط من فوق السلم وهو يسعى لنجدتها عندما سمع صراخها، وكذلك سناء وهى تلحق بأخيها لتتبين ما يحدث.

وما ان ظهرا أمامها حتى لاحقتهما قائلة:

- تعاليا لتعرفا المصيبة.. التى كدنا نقع فيها.

اقتربا منها بتوجس.. ثم بادرها سامى قائلاً:

- ماذا فى الأمر ياأمى؟

أخـذت صفـية تثـرثر بكل التـفـاصيل دون أن تلتـقط أنفاسـها وهى ما بين حائرة ونـاقمة.. ولم يوقفـها عن الكلام غير انخراطها فى بكـاء مرير.. بينما تقدم سامى تجاه أبيه بهدوء.. ثم تسائل متشككاً:

- هل حقاً ما سمعناه ياأبى.

تململ سليمان قليلاً قبل أن يجيبه قائلاً:

- أجل ياسامى إنهـا الحقيـقة.. ولو اننى كنت أرغب فى أن تتريث والدتك قليلاً حتى نبلغكما بطريقة مناسبة.

وكأنهـا لحظة انصهار جبل جليـد فجأة، ليتـحول إلى طوفان من الشـلالات التى تجمد كل حـياة. . أو لحظة زلزال غـاضب راح يـدمـر كل مـا هو فـوق الـقـشـرة الأرضية. . لحظة يهرع منها الموت نفسه باحثاً عن نفوس مطمئنة.

تلك اللحظة التى تساءل فيها سامى بهدوء شديد قائلاً:

- وما ذنب طاهر ياأبى؟!

ومن خـلال الـصـمت المهـمـوم. . والتـفـاتة الأم المكلومـة. . ونظرة الرضـا فى عين سناء. . همس الأب على استحياء:

- ماذا تقصد بسؤالك ياسامى؟

أجابه بثقة:

- أنا فقط أتسـاءل. . ما ذنب طاهر أو مـيخائيل كـما تقولون عنه؟

وهنا أسرعت إليه صفية قائلة:

- إنه مسيحى ياسامى. . وأختك مسلمة

التفت إليها متسائلاً بإصرار:

- وأنا. . ماذا أكون ودماؤه تسرى فى عروقى؟

وفى محاولة يائسة قالت الأم:

- أنت ابنى.. أنت مسلم.. كل الأوراق تثبت ذلك.. إنك من أب مسلم.. وأم مسلمة.. وعائلة مسلمة.. وأنت

قاطعها بتعقل:

- نعم الأوراق تثبت هذا.. ولكن أنتم تعلمون أن الحقيقة ليست كذلك.. أنا أعلم الآن ما هو شعوركما تجاهى، كيف لإنسان مثلى عرفت عنه اللامبالاة تصدر عنه تلك ا لمعتقدات.. أنا فعلاً ياأمى كنت أشعر بالغيرة تجاه طاهر كلما عاملتموه بلطف ورقة.. ولكننى لا أتصور قط أن يفرق بينه وبينى أى شىء.. وإذا كنتما ستحرماننى منه باسم الدين، فالدين نفسه يدعونا دائماً باتباع من آمن بالله وكتبه ورسله.. كل رسله ياأمى.. ابتداء من بدء الخليقة إلى محمد عليه الصلاة السلام.

وقبل أن تصرخ صفية فى وجهه، فوجئت بسناء تسرع تجاهها قائلة:

- ياأمى.. طاهر مسلم.. وإذا كان عمى ارتكب تلك الجريمة، فما ذنب طاهر؟

هدأت صفيـة.. ولكنها لم تهدأ بإرادتها، وقـد فقدت القـدرة على الصراخ بعـد كل مـا سمـعت من ولدها، وحاولت أن تتماسك قائلة:

ـ طاهر هذا أصبح «ماضى» بالنسبة لنا.. عمكما نفسه لن تقوم له قائمـة بيننا عليكما بنسيانه تمامـاً.. لقد غدر بنا.. أليس كـذلك يا سليـمـان.. و.. اتجـهت نحـو زوجها بتؤدة..

فأجاب مستسلماً:

ـ نعم.. من الآن انتهت علاقـتى بعمرو.. ولا أحب أن أسمع سيرته بعد اليوم.

قال سامى والدموع تترقرق فى عينيه:

ـ على كل حال.. هو أخوك

هرعت سناء تجاه أبيها، ولكنها فوجئت بأمها تستوقفها صارخة:

ـ مـاذا تريدين.. لقـد سـمـعت مـا قـاله أبوك.. وأقسم بالله إذا حاولت الاتصال بميخائيل لأتبرأ منك للأبد.

توقفت سناء أمامها والدموع تملأ عينيها.. ثم قالت:

- أنا أحب طاهر يا أمى

أجابتها بجفاء:

- الحب وحده.. لا يكفى، يا ابنتى فى هذه الدنيا.. ولكى تتعاملى مع هذه الدنيا، يجب أن تسايريها فى القوة والمال، والصحة، والسلطان، والنفوذ والقدرة على المعايشة.

قالت وكأنها تصفعها:

لا يا أمى.. تلك تعاليم الغرب.. تعاليم ثلاثمائة سنة فى عمر التاريخ.. فأين تعاليم السبعة آلاف سنة من حضارتنا وملايين السنين التى مضت قبل ذلك.

وهنا تقدم سامى نحو شقيقته، وأمسك بذراعها قائلاً:

- لا تحاولى يا سناء.. فلا سبيل لإقناعها بذلك.

وبلا مقدمات اتجه سامى نحو النافذة الزجاجية، وأطلق يده اليمنى بقوة تجاهها، حتى اخترقتها وتدفقت الدماء بقوة من عروقه لتطفو على الأرض وملابسه، وثنايا الزجاج، وتعالت الصراخات من أفراد عائلته جميعاً.. بينما همس سامى قائلاً بصوت ضعيف:

- لعلنى أخرج هذه الدماء التى سوف تفرق بين

أسرتى.. و.. وصــرخ الجمــيع فى لهفــة عليه، بيــنما ازدادت صرخات سليمان وهو يردد كلماته لزوجته قائلا:

ـ ألم أقل انتظرى حــتى تحيــن الفرصــة.. منك لله.. منك لله.

وأسرع إلى التليفون طالباً سيارة الإسعاف.

[٨]

مضت ساعات طوال، وطاهر يقطع الطرق على قدميه دون هدف.. تارة تسوقه خطوته إلى حيث ينساب النيل بتؤدة، فيرى لونه مع ظلمة الليل وقد بدا داكناً يزحف كالأفعى، وتصدر تموجاته الثقيلة صوتاً كالفحيح.

وتارة أخرى يقف يتأمل السماء إلى ما لا نهاية، وقمرها يغيب برهة وراء السحب الكاذبة، ونجومها تضوى كالشهب المقيدة.. لم يكن يبحث عن شىء ولكنه انطلق دون أن يدرى، هائماً بلا تحديد، بعد أن استكمل الاستماع إلى قصة مرسال عمه السجين.. شعر فجأة بأنه بلا هوية وبلا معالم ولا كيان.

وكأن الدنيا قد لفظته فجأة إلى عالم المجهول.. عالم بلا «ماضى» ولا مستقبل، إحساسه بالخوف من ذلك الغيب القادم قيد عقله وشل تفكيره.

ازدادت رغبته فى أن يرحل.. ولكن إلى أين؟

لم يجد أمامه فى النهاية غير طريق المواجهة.. مواجهة الحقيقة القاسية.. حقيقة وجوده الزائف.

كيانه كله كان ينتفض، وهو يدخل إلى الفيلا.. خطواته تجاه غرفة المكتب تتعثر مع اضطراب أنفاسه المتلاحقة واهتزاز نبضات قلبه.

قال متردداً:

ـ مساء الخير يا..

ولكنه أمسك عن الكلام، وكأنه سقط مع حيرته فيما يجب أن يناديه.. هل يقول يا أبى.. أم يا عمى.. أم يا أطيب رجل فى الدنيا.. أم ماذا؟

ولم يكن من العسير على المستشار عمرو عبدالحميد أن يتوقع شيء بالغ الأهمية.. لحظة كان يترقبها، كان يدرك أنها آتية بلا ريب.

ـ مساء الخير يا ولدى.

أحس طاهر بنبرة صوته تقتنص دموعه من بين جفنيه، ولكنه تمالك بصعوبة وهو يقول:

ـ أتسمح لى بالحديث مع حضرتك قليلاً.

همهم بحذر قائلاً:

- اجلس يا طاهر.. ولك ما تريد..

جلس بهدوء أمامه.. ثم همس بلا مقدمات:

- أريد الحقيقة.

تيقن عـمرو فى تلك اللحظة، بأن مـرسال فهـمى قد وصل إلى ولده وأبلغه بكل شيء، ولكنه أراد أن يـتثبت من ذلك.

فبادره برفق متسائلاً:

- قابلت أحدا، وأخبرك بشيء لم تكن تعلمه؟

- نعم.. ولكنى أريد سمـاع الحقيقـة منك أنت.. فلا أحد سواك يهمه أمرى.

فى هذه اللحظـة نهض عـمـرو ببطء، وكـأنه يتـأهب للمرافعة.. حاول طاهر فى حينها أن يقف، ولكن عمر لحق به وهو يربت على كتفه بحنان مردداً:

- لا تنهض يا ولدى.. إبق كما أنت.. و..

راح يخطو بـضع خطوات ذهاباً وإيـاباً أمـامـــه.. ثم التفت إليه قائلاً:

- اسـمعنى جـيداً يا ولـدى.. فأنا عـهدى بك دائمـا

رصين العـقل، سديد الفكر.. لم تكن يوماً شـاطحاً أو جامـحاً.. كنت دومـاً طيب القلب.. شديـد الإيمان، عف اللسان، صادق الوجدان.. و..

اقـترب منه وهو يضع كـفـه فوق رأسـه بعطف.. ثم استرسل قائلاً:

ـ أنا لن أناورك فى حديثى مـعك.. ولو أننى تصورت يومـاً أن هذه الحقـيـقة قـد طوتهـا ليالى زمـان فى طى الكتـمان، ولكن مـادامت تلك مشـيئـة الله، فلا مـرد لقـضـائه.. كل مـا أريدك أن تعلمـه قـبل أن أخـبـرك بتفاصيل الموضوع أن تدرك جيداً، أن الأبوة ليست شهادة مـيـلاد أو اقتـران اسم إنسان مـا بآخر.. وبأن الأمـومة ليسـت أشهر الحـمل وحدها فـقط.. الأبوة يا بنى هى الرعاية والحنان ونقل الخـبرات، ومتابعة الوليـد يوماً بعد يوم وعاماً بعد عـام، حتى يتمكن من أن يشق طريقه فى الحيـاة متـحصناً بالخلق القـويم والمبادىء الرشـيدة، وبما يحميه من نكبات الزمن.. مثلك تماما يا ولدى.

الرسـول نفـسه صلـى الله عليـه وسلم ظن الناس من حوله أن «زيـد» هو ولده من شدة حـرصه على رعـايته ومن حـسن تنشـأته له.. وفى مـثل تلك الأمـور تكون

مـشـاعر الإنسـان هى الحكم الوحـيـد. . فـهل أبديت استعداداً لأن تسأل مشاعرك؟

رفع طاهر نظرته إليـه فى سلام، دون أن يتفـوه بكلمة ولكنه فشل فى أن يخفى دموعه، وهى تنساب بغزارة.

فلاحقه مستطرداً:

ـ هل شـعرت بـالغربة بيـننا يوماً؟. . هـل أحسـست بتقصيـر فى رعايتنا إليك؟ هل راودك خاطر ما ذات يوم بأنك لست من صـلبى؟. . أجـيـبك أنا يا ولدى. . أنا نفسى كـدت أنسى تلك الحادثة، وما أحسـست يوماً إلا أنك ولدى. . ولدى الوحيد والحبيب لقد كنت أنا وأمك نسهـر الليالى الـطويلة، ونحن ننظر إليك شاكـرين الله على هبته لنا، قانعـين بما رزقنا المولى، الذى جعل فيك عوضاً عن حرماننا.

أجل يا طاهر. . تلك هى الحـقيـقة، ومـا كنت أرغب يومـاً أن أقف هذا الموقف أمامك، ولكنى وإن كنـت قد طاوعت نفسى ذات لحظة لكى أخـفى جزءاً من الحقيـقة عن الآخـرين. . أمـا الآن فلا أسـتطيع أن أخـفى عنك شيئـاً. . فأنا لو قدمت إليك كل ما أملـك. بل وحياتى

كلهـا فى سبيل نبـضة حب واحـدة منك لى، وأنت لا ترغب فى ذلك فلن أفلح مهما حاولت.

فـالأمـــر بين يديك الآن.. وأنت وحـــدك صـاحب القرار.. ولكن يجب أن تعلم حقيقة ثابتة، قبل أن تتخذ قرارك فـأنا يا ولدى، لم أحرمك من أحـد لأنى لم أكن أعرف أحداً غير أصـحاب الحادثة، اللذين لم أعرف من تفاصيل حيـاتهما أكثر مما عرفـته.. و.. ولكنه صمت فجأة عـندما دخلت نرمين إلى مجلسـهما، وفى عينـيها نظرات حائرة، تكاد تفضح ثورة التوتر بداخلها.

وقبل أن تـتفوه بكلـمة واحدة، لاحـقهـا عمـرو قائلاً بهدوء مثير وبنبرة حاسمة:

ـ لقد انتهى كل شىء يا نرمين.. وذكرت له الحقيقة.

تساءلت بتوجس وهى ترمق طاهر بسرعة:

ـ أية حقيقة؟

أجاب عمرو بنفس الاتزان:

ـ حقيقة أم خليل وأبوخليل.. لقد..

ولكنه أمـسك عن الكلام، أمام صرخـتهـا الفجـائية، وهى تسرع نحو طاهر محتضنة إياه بقوة مرددة:

ـ لا . . لا أحد يمكنه أن يأخذ ولدى منى . . أنت ابنى يا طاهر . . أنا أمك يا أعز الناس . . لا تصدق ما يقال لك . . لا . . لن يحدث . . لن . . وراحت تصرخ فى هستيريا تشق جلمود الصخر، ودموعها تتقافز من عينيها بقوة عجيبة . . و . .

فجأة نهض طاهر من مكانه، ثم هوى إلى الأرض منبطحاً أمام قدميها، وهو يتلمس ساقيها بشفتيه مردداً:

ـ أمى . . أنت أمى ولا أعرف سواك . . أنت كل شىء فى حياتى . . لا تبكى يا أمى فدموعك أغلى من دمائى .

ولم تستطع نرمين أن تتمالك نفسها، فسقطت معه على الأرض وهى تحاول أن تحتويه بأكمله إلى صدرها قائلة:

ـ كنت أعلم يا حبيبى . . كنت أعلم أنك ولدت طاهراً وستظل طاهراً إلى الأبد . . أنت ولدى الوحيد . . أنت .

وقف وهو يساعدها على النهوض أمامه، ثم ضمها إلى صدره بحنان صادق قائلاً:

ـ من كان له أم مثل أمى، فذلك خير دليل على رضا الله عليه .

والتـفت تجاه عـمـرو الذى كان يتـابع الموقف بعـينين دامعتين ثم أتخذ خطوة نحوه قائلاً:

ـ أما أنت يا أشرف الرجال، فأين يـكون للفخر مجاله إن لم أفتخر بأبوتك لى.

وقبل أن يجيبه عمرو بحرف واحد، استطرد طاهر قائلا بتأدب:

ـ لى رجاء واحد يا أبى.

ـ ما هو يا بنى؟

ـ أريدك أن تحدد لى موعداً معه.

مـضت لحظة صـمت، وكـأنها سـاعـات طوال.. ثم تساءل عمرو بحذر قائلاً:

ـ مع من يا طاهر.

أجاب بهدوء:

ـ عمى.. أقصد فهمى بطرس ملاك.

حاولت نرمـين أن تعترض، ولكن «عمـرو» استوقفـها بنظرة حاسمة ثم قال بعد أن ازدرد ريقه:

ـ أعدك بذلك طالما هى رغبتك.

ثم التفت إلى زوجته بثبات مردفاً:

ـ تعالى يا نرمين.. فمن المؤكد أن ولدنا فى حاجة لأن يكون وحيداً بعض الوقت.. ثم أحاط كتفها بذراعه وخطى بها خارج المكتب.

لقد ظنا أنه سيصبح وحيداً، ، قد يكون كذلك بجسده، لا بوجدانه.. لقد كان محاصراً بتاريخ طويل هو تاريخ عمره بأكمله، بما فيه من أحداث ومواقف.. كل شىء كان يلازمه كظله فى شكل صور متلاحقة تطوف بعقله وذكرياته.. طفولته البريئة، وصباه النقى.. ومشاعره الشابة، وعواطفه الخاصة.. كل شىء تحت مظلة الحيرة والشك.. لا يعرف إلى أين يذهب وإلى من يعود.

وكأن قلبه لم يعد قلبه.. وعمره لم يعد عمره.. وهو لم يعد هو ذاته.. من يكون..؟

أهو صوت الماضى أم نبتة بلا جذور

أهو نبض الحاضر أم حرف ضائع وسط السطور أهو غموض المستقبل أم زهرة تحيا فوق القبور من يكون..؟

أهو اسم بلا بنيان.. أم ظل بلا كيان

كان يخرج من منزله صباحاً، ولا يعود إلا مع غروب الشمس، وكأنه يعود

مع غربة نفسه.. لا يحـدث أحداً.. بل يحرص على ألا يحادثه أحد.

إلى أن فوجـىء ذات يوم، بسناء تستـوقفـه فى إصرار قائلة:

- لماذا تحاول الهروب منى.

- أنا لا أحاول الهرب.. ولكنى ألهث وراء الحقيقة.

اقتربت منه وهى تلتقط أنفاسها قائلة:

- الحقـيقـة.. ما بينى وبينك الحب.. وبـالحب وحده سوف نحقق كل أمانينا.

- الحب ليس وسيلة لتحقيق الأمانى.. ولكنه رغبة فى الحياة نفسها.

قالت وهى تحاول ملامسة كفيه:

- ألا نعيش الحياة وأنا وأنت الآن؟

تلمس جبـهته بأطراف أصـابعه فى مـحاولة لتجـفيف قطرات العرق المتصبب بغزارة.. ثم أجاب:

- الحياة دون معرفة الحقـيقة كأنك تروين أزهاراً صناعية بماء زلال.

- ولكنى أعيشها بالفعل.. و..

تلفـتت حولهـا، وكـأنها تبـحث عن شيء مـا.. ثم أردفت قائلة

ـ أنا أراك.. وأرى الناس والطبـيـعة.. آكل وأشـرب وأنام.. أتذكرك.. وقد أنس الاخرين.. أشتاق إليك.. وأبحث عن سعادة أكثر.. ألايعنى هذا أننى أعيش.

قال وهو ينظر إلى لا شيء.

ـ تعيشين من أجل من؟

أجابت بلا تردد:

ـ من أجل نفسى

تفحص عينيها قبل أن يتساءل:

ـ ومن هى نفسك؟ هى من خلق الله

لاحقها قائلا:

ـ وهل تطعين خالقك؟

قالت بحماس:

ـ نعم..

استدار بهدوء.. ثم همس قائلاً:

ـ وماذا تفعلين من أجل ذلك؟

تقدمت نحوه.. حتى أصبحت فى مواجهته ثم قالت:

- أنا أتجنب الخطيئة.. وأسعى إلى حب الآخرين.. وأبحث عن الخير.. وأنبذ الشر.. وأتبع تعاليم الله.. أصوم وأصلى.. أؤدى الزكاة وأتصدق.. لا أدع فرضاً من صلواتى الخمس إلا وأديته.. لا أظلم ولا أقترب من المحرمات.. و..

قاطعها والدموع تترقرق فى عينيه:

- ولماذا تفعلين ذلك؟

أجابت بلا إرادة:

- لأننى مسلمة

أمسك بكتفيها برفق.. ثم قال ونبرة البكاء فى صوته:

- وأنا أيضا أفعل ما تفعلينه.. وأكثر.. أصلى وأصوم.. أتجنب الرذيلة.. وأبحث عن الحب والسلام.. وأؤمن بالله.. وأنبذ الشر.. ولا أدع فرضاً فى صلواتى.. وأتبع تعاليم الخالق..

ولكن.. الفرق بينى وبينك.. أنك تعلمين من تكونين.. أما أنا فلا.

قالت وهى تحاول أن تحتضنه:

ـ أنت . . طاهر

تخلص منها بهدوء وهو يقول :

ـ أنا اسمى طاهر . . ولكن هل أنتى على يقين من ذلك؟

أجابت بجدية :

ـ ولكنى أحبك . . أحبك .

قال والحيرة تملأ قسمات وجهه :

ـ كل الأديان تدعو للحب . . اليهودية . . المسيحية والإسلام . . وقبلهم الـ . . . . .

قاطعته برغبة صادقة :

ـ أنا أحبك . .

أجاب بنبرة مسالمة :

ـ وأنا أحب الله . . الله خالق الكون بما فيه . . السموات والأرض . . النبات والجماد . . الأنهار والبحار . . الشمس والقمر . . والكواكب . . الجبال والصحراء . . ما فوق الأرض وتحتها . . الليل والنهار . . الطبيعة بكل ما فيها . . الله خالق كل شيء وقادر على كل شيء . . . أنا أحبه لأنه الخير والسلام والحب . .

أحب الله لأنـه يرزقنى ويسـعـدنى. . أحـب الله لأنه خلقنى لكى أكون سـعيداً هانئاً راضـياً ومستـقراً. . الله الذى لا شريك له. . أحب الله لأنه لا يفـرق بين إنسان وآخـر لأننا جمـيـعـاً من خلقه. . ولأنه لا يـتوعـدنى بالعذاب.

قالت فى استحياء:

- ما الذى يدعوك لهذا الحديث؟

همس مـردداً وهو يرفع خـصـلات شعـرها من فـوق جبهتها برفق. . قائلاً:

- لأننـى أحب اللـه. . والله هدانـى للحـب. . ومن خلال هذا الحـب. . أحببـتك. . فأنا أحـبك يا سناء. . ولكن. . للدنيا رأى آخر.

تساءلت وهى تتراجع خطوة:

- الدنيا. . ماذا تقصد بالدنيا؟

أجاب بغير مبالاة:

- الدنيا التى اخـترعناها. . التى قد تفـرق بين الإنسان والآخر. . والحق واللاحق. . بين الدماء الواحـدة بحجة الأبحاث العلمية وبين المياه العذبة والمياه المعدنية. . الدنيا

التى لا تفـرق بين الصـدق والمظـاهر.. الظلم والحق.. القوة والضعف.. النقاء والجفاء.. النفاق والرياء.

أجابت والخوف يشمل كيانها:

لا تجعل الظروف الجديدة تسيطر عليك.

أجاب وقد ترقرقت ابتسامة فوق شفتيه لأول مرة:

ـ وهل سيدعنى الآخرون أفعل ذلك.

قالت بحماس:

ـ قاوم يا طاهر.. فقط حاول أن تقاوم.

قال هادئاً:

ـ نعم سأفعل.. وأتمنى من الله أن يهـدينى لما هو خير لى.. و..

صمت لحظة ثم أردف:

ـ والآن أرجوك أن تـتركينـى لحال سبـيلى حتـى أعود إليك، لعلى أكتشف حقيقة الأمر بنفسى أو أعرف حقيقة من أكون.

ثم انصرف فجأة، تاركاً إياها وهى تتابعه بنظراتها حتى اختفى تماماً من أمام عينيها.



[٩]

لم يتصور طاهر أن مطلبه سوف يتحقق بهذه السرعة، فقد أبلغه المستشار عمرو بأنه استطاع أن يحصل على تصريح من النائب العام لمقابلة المتهم فهمى بطرس، وحدد له الساعة والتاريخ.

كادت خطواته أن تخذله وهو فى طريقه إلى السجن.. خواطره راحت تتقاذفه بين طيات الذكريات.. فكر أكثر من مرة فى أن يتراجع عن رغبته، ولكن إحساسه بالضياع والتشتت كان أقوى من احتماله.. فهو يرغب فى معرفة الحقيقة أكثر من احتياجه إلى النسب.. يرغب فى تحقيق ذاته أكثر من الحاجة إلى نبش الماضى.. يريد أن يستصرخ ضمير المجتمع فى جملة واحدة.. ما ذنبى أنا؟

وكـأنه يبحث عن براءته أمـام المجتـمع، والبشـرية . . وأمام الله .

كان يريـد أموراً كثـيرة . . ولكن عندمـا لاحت له فى الأفق أول بادرة لتحقـيق ما يريد، بدأت قدماه تعـصيانه فى خطوها ومشاعره تتمرد على وجدانه، وأفكاره تترنح إلى حيث هوة أعماقه .

وبالرغم من ذلك وصل إلى مقصده .

وتقـدم إلى المسـئولين بـأوراقـه، لكى تتم إجـراءات المقابلة .

وما هى إلا دقائق معـدودة حتى كاد قلبه أن ينخلع من صدره بعدها، استدعى للحظة اللقاء .

دخل إلى غرفـة بلا أثاث، متوسـطة المساحة، تخـترق أحد جـدرانها نافـذة صغيـرة حيث تشـابكت القضـبان الحديدية فـوقهـا . . تلفت حوله وهو يتنفس الصـعداء، وكـأنه يأمل أن يكون هو فى انتظار الـعم، فتـحـقق له ذلك . . لعل هذا يرحمه من شدة الاضطراب .

لحظات أخرى أحسسها وكأنها سنوات عمره كله . . ثم انفـتح الباب وامـتدت الأيدى لتـدفع برجل يرتدى رداء

أحمر اللون، وكأنهم يقـذفون بكتلة من اللهيب أصابت قلب طاهر مباشرة.

تقدم فهمى خطوة تجاهه، وبالرغم من ملامحه الجامدة وعـروق رقبـته الـنافرة إلا أن فى عـينيـه نظرات ملؤها الحنان.. والحب.

ثم تساءل بهدوء:

ـ أنت.. أنت ميخائيل ابن أخى؟

أجاب طاهر، كأنه يستخـرج أحرف كلماته من أعماق بئر عميقة قائلاً:

ـ لست أدرى.. أنت الوحيد الذى تعلم من أنا.

تقـدم فهـمى مرة أخـرى بخطوة منقوصـة المسافـة وقال:

ـ نعم أنت مـيـخـائيل بطرس مـلاك.. أنت ابن أخى إبراهيم ولقد أمضينا جميعاً أكثر من عشر سنوات نبحث عنك.. وعندما شاء الرب أن يجمعنا فها هو أنت أمامى الآن.. و..

وقبل أن يسترسل فى حديثه، قاطعه طاهر برفق قائلاً:

- لقد جـئت استـحلفك باسم الرب.. وبضمـيرك..

وأنت تعلم أنك ملاقيه عاجلاً أو أجلاً. . أريد أن أعرف الحقيقة. . حقيقة واحدة فقط. . من أنا؟

حاول فهمي أن يـلمس كتف طاهر بيده، ولكنه تراجع بسرعة، وبدت ملامح سطوة الدموع تطفح بين جفنيه. . في كبرياء غريب. . ثم أجاب بنبرة حاسمة:

- أريدك أن تعلم أولاً شـيئـاً هامـاً. . وهو أن الرجل الذي رعاك هو مـن أعظم الرجال وأشرفـهم. . هو من أتقى الناس وأنقاهم. . هو أصدق من قـابلت في حياتي واكثرهم مروءة وأكثرهم حكمة. . وأننى كنت علي يقين بأنه لن يخضع لمـساومتي لأنه شـريف وصاحب ضمـير حي. . ولكني أردت فقط أن أطلعك علي الحقيقة. . فأنا ميت لا محالة ولكني لست سفـاحاً أو مجرماً، إنها لعنة الثـأر التي تلحق بكل جـاهل ومتـغطرس. . وأريدك أن تعلم ايضاً أن السـيدة التي قامت برعـايتك هي من اطهر النساء واشـرفهن، لقـد ظلت هذه السيـدة الكريمة ترعي والدتك الحقيقية بكل العطف، والمودة، كما كانت ترعاك تماما. . . و. . .

توقف برهة عن الحديث ليـشعل سيجـارته التي تناولها من تحت غطاء رأسه، ثم أردف قائلاً:

- الآن قد أرحت ضـميـري بالنسبـة للرجل وللسـيدة حرمـه.. وجاء حقك علي لتـعرف كل شيء من أهلك وأقاربك فأنت يـا ميخائيل من أسرة كـريمة وثرية، وكان جدك هو المقـدس حنا ملاك واستـطاع والدك أن يحافظ علي ثروة عـائلتنا بل وزاد من أطيانهـا طوال فتـرة بقائه بأسيوط، حتي حدثت الحادثة المشئومة التي أحيت قضية الثـأر بيننا وبين عائلـة مرقص واضطر أبوك للهـرب هو وأمك إلي القـاهرة وتجنبـاً لمزيد من الـدماء المسـفـوكـة بجهل، وأثر أن يعـيش حياة ضـحلة فداء لنا جميـعاً.. أنت ياولدي من عائلة كبـيرة ورجالها شرفـاء، وأكثرهم في مناصب مرمـوقة ومنهم من ضحي بحيـاته في سبيل وطنه مثل سمـير ابن خالتك عقيد الشرطـة الذي اغتالته جمـاعة من الارهابيين غدراً.. ضحي بحـياته من أجل حماية بلده من هؤلاء الخونـة المأجورين.. لك أن تفخر ياولدي بأسرتك الكبيرة كمـا سيفخرون بك عند عودتك إليهم.. و..

بثبات غير مصطنع تساءل طاهر قائلاً:

- هل لي أشقاء؟

- لا.. فقد شاءت إرادة الرب أن يتأخر مجئيك للحياة

بعـد سنوات طويلة من زواج والديك.. فـأمك هي ابنة عمي ايضاً.. وسأروي لك كل شيء بالتفصيل.

وراح فهمي بطرس ملاك يسرد لابـن اخيه قصة الرحلة الطويلة منذ بدايتـها.. كـيف بدأت قصـة الثأر وكـيف تزوج أبوه من أمه.. أبلغه بقرار أبيه للهرب إلي القاهرة بصحبة زوجـته وكيف عاني كليهما من طريقة حـياتهما الجديدة خاصة وأنه لم يبدأ في زيارتهـما إلا قبيل الحادثة بأشهر قليلة خوفاً من العيون المتربصة بهما.. قص عليه كيف كانت علاقة أبويه الحقيقيين بأبويه الحاليين.

وهنا قاطعة طاهر بلا تردد متسائلاً في تحفز:

- ألا تري تناقضاً في حديثك؟

تقلصت أسارير فهمي وهو يقول:

- ما الذي يدعوك لكي تقول هذا؟

أجاب بجرأة الواثق:

- كيف تذكر لي أنني من أسـرة ثرية.. غاية في الثراء ثم تخبرني بحياة شقيقك وزوجته القابعة في جوف الفقر المرير.. ولماذا لم تمنحه المال طالما عرفت طريقهما وكنت تزورهما كما ذكرت؟

- عندك الحق يا ولدي.. فـأنت لاتعلم طبيـعة حـياة أهل الجنوب.. للأسف الشديد لم ترض العائلة والأهل عن تصرف أبيك واعتبروه جـباناً لأنه هرب من المواجهة وكـان قرارهم هو الاسـتيـلاء علي كل ممتلكاته وأطيـانه مستثمرين عائدها في شـراء الأسلحة والقتال المستمر بين عائـلتنا وعائلة مـرقص.. وها أنا كمـا تراني الآن أدفع ثمن التخلف والجهل والعناد.. و..

أردف يذكر له كل شيء عن مكانة عائلته وموقع أطيانه والأسماء التي يمكنه أن يستعين بها في استرداد حقه، كما اخبره عن عائلة مرقص وما وصلت اليه الآن، وكيف أنه يأمل في أن يتوقف القتال خاصـة بعد أن ينفذ فيه حكم الإعدام.

بادره طاهر متسائلاً فجأة:

- وهل كان والدي يعلم بكل هذه الحقائق؟

- تقصد المستشار عمرو؟

- نعم

- لا لم يكن بـعلم شـيـئـاً عن والديك الـلهم إلا اسميهما.. أبو خليل وأم خليل.

تسلل إحساس بارتياح إلي صدره وهو يقول:

- هل تعلم حقيقة الموقف الذي أنا فيه الآن؟

نعم ياولدي أعلم.. وليباركك الرب وينجو بك من الخطيئة التي لاذنب لك فيها.. همس في توجس:

- أية خطيئة؟

نظر إلي عينيه برهة ثم أجابه قائلاً:

- الرب وحده هو الذى يعلم الحقيقة.

- أجل الله وحده هو الذي سيهديني.. و..

تململ قليلاً قبل أن يقول:

- الآن.. سأنصرف. هل ترغب في أن تخبرني بشيء آخر.

أسقط نظرته إلي الارض في استسلام وهو يومىء برأسه نافياً.

وما كاد طاهر يتحرك تأهباً للانصراف حتي استوقفه الرجل صائحاً بلا مقدمات:

- انتظر أرجوك!

التفت إليه وهو صامت، بينما أردف فهمي قائلاً:

- لي طلب أخير.. أرجو أن تحققه لي..

تساءل بهدوء:

- ما هو؟

- أريد أن أحتضنك.. فأنا لا أعلم إن كنت سأراك ثانية أم لا.

تقدم طاهر نحوه بخطوة، بينما اندفع إليه فهمي وراح يضمه إلي صدره في حنان صادق مردداً:

- حماك الرب يا ولدي.. حماك الرب.

وهنا دخل الحرس ليقتادوه إلي حيث كان، وهو لايزال يردد بصوت مرتفع:

- قل لعماتك وأهلك كفي قتالاً.. وليتخلصوا من الخطيئة.

وفي الطريق لم تفارق صورة الرجل مخيلة طاهر.. أعاد إلي ذاكرته كل حرف نطق به إليه تلميحاته وإيماءاته.. نبرة صوته ونظرة عينية.. صور تتلاحق امام عينيه وهو في طريق عودته إلي المنزل.. كان يستشعر صدق الرجل، في لحظة مشاعر العطف معه.. فهو عمه بحق.. يراه لأول وآخر مرة في حياته.. تكاد تتشابه ظروفهما.. الرجل في طريقه إلي الموت، وهو في طريقه إلي عالم الغيب المجهول.

وعند دخوله إلي الفيلا، كان الصمت الكئيب يخيم علي المكان بالرغم من وجود المستشار عمرو وزوجته نرمين.. كل منهما انزوي فوق مقعد في سكينة وترقب.. وما أن شاهداه مقبلاً حتي احتبست انفاسهما في رئتيهما.

بينما تقدم طاهر إلي الرجل مباشرة، وتناول يده وراح يقبلها بإجلال شديد قائلاً:

- لو ظللت أقبل يدك طوال ما تبقي من عمري ما وفيتك حقك.

أزاح عمرو يده بعيداً وهو يربت علي كتفه قائلاً:

- أنت ابن بار يا طاهر، وثق أنها كانت إرادة الله وهو علي كل شيء قدير.

فتحرك طاهر تجاه نرمين، وانحني مقبلاً جبهتها بحب ثم قال:

- أما أنت يا أحن إنسانة في الوجود، فكيف أعطيك حقك؟

انهمرت دموعها وهي تردد:

- حقي عليك ألا تتركنا.. أنت ابني.. أنا لا أمانع

في سفرك إلي فرنسا.. قد تكون في حاجة إلي ذلك..
ولكنك ستعود إلي كما كنت.. ابني الوحيد..

تراجع طاهر بخطوة إلي الوراء وهو يهمس قائلاً:

- لتكن إرادة الله ما تكون.. و..

تقـدم بخطوات قليلة ثم توقف وسط المسـافـة بينهمـا وأردف قائلاً بنبرة ملؤها الحب:

- لقد سمعت من الرجل ما يجـعلني أفخر بكما مدي حياتي، فلو لاكما لكنت الآن في أحد الملاجيء أو كنت أقضي مدة عـقوبة في أحد السجون بعـد تشردي.. لقد هداكما الله لكي تمنحاني حياة كريمة بينكما.

نهض المسـتشـار عمـرو وتقدم إليـه، حتي أصـبح في مواجهته وقال:

- مهما يكن قـرارك يا ابني.. فلا أنا ولا أمك سوف نفرض عليك شـيئاً.. ولكن الذي يـجب أن تعلمه أنك ستظل دوماً ولدنا الوحيد، حتي لو اخترت أن تعود إلي أهلك.

أجابه مسرعاً:

- أنا ليس لي أحد غيركـما.. وكنوز الدنيا لاتعوضني

نظرة واحـدة منك أوتعوضنـي لمسة حنان واحـدة من يد أمي ولكن الحـيرة تمزق أحـشائي.. أريد أن أعـرف في الواقع طريقي؟

النوم رحل عن جفوني والهم سيطر علي قلبي.. أريد ان اتأكد من شيء اجهله.. وما اقسي أن يبحث الانسان عن شيء يجهله.. أنا.

قاطعه عمرو برفق:

- أنا أقدر ظروفك يا ولدي.. ولكن نصيحتي لك ألا تجعل الظنون تلعب بأفكارك.. لقـد ربيتك لتكون مؤمناً دائمـــاً بإرادة الـله.. وثق أن اللـه وحــده هـو الذي سيهديك.

أجابه والدموع تملأ جفنيه:

- ولكني أشعر بأنني شهيد ظروف لا ذنب لي فيها

- ولكنك لم تقتل.

بل قتلت هويتي فجأة.

قال عمرو عبدالحميد بثقة:

- طاهر يابني.. الله لايفرق بين شهداء حرب الهزيمة وبين شـهـداء حـرب النصـر.. بين شـهـداء ١٩٦٧،

وشهـداء ١٩٧٣ كلهم أمـام الله سواء. يقـول سبحـانه وتعالي «ولا تحـسبن الذين قتلوا في سبـيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقـون» صدق الله العظيم.. وأنت يا ولدي لم تقتل وإذا كنـت تعتبـر نفسك شهـيداً للظروف فـالله وحـده يعلم مكانتك عنـده لأنك لاذنب لك في شيء.. وفي النهاية الدين لله.

رفع أصبـعه ليـمسح قطرة دمع انسابت مـن عينه وهو يجيبه:

- أنا لا أعترض علي مشـيئة الله.. ولكني أخشي أن أغضـبه في طريقـة تقربي لإرضـائه.. ربت علي كتـفه بحنان وهو يردد:

- كن مع الله يا ولدي.. كن مع الله

لم يكن من اليسير علي طاهر أن يتخلص من إحساسه بالضـياع، توالت الليـالي عليـه وهو يسبح في دومـات الحيرة. تارة تقذف به الظنون إلي أعماق هوة الغموض، وأخري تطيح به فكرة آفـاق المجهول وثالثـة تشل تفكيره وإرادته عن كل شيء، كـان كعـادته منذ علم بالحقـيقـة يخرج في الصباح ولايعود إلا مع رحيل الشمس.

وفي صباح أحد الأيام، ألحت عليه فكرة غريبة. . شعر بحنين كبير لأن يذهب إلي حيث كان مولده.

استوقف سيارة أجرة وقال للسائق بثبات:

- النزهة الجديدة من فضلك.

وعند أول المنطقة هبط من السيارة، وبدأ يتوغل بخطاه في داخلها. . كان ثابتا وكأنه يعلم إلي أين يذهب. . فلقد ذكر له عمرو عبدالحميد وكذلك فهمي بطرس تفاصيل المنطقة بدقة.

أدهشته التغيرات الجذرية التي اصبحت عليها المنطقة، حيث تعددت المباني وباتت الطرق أكثر ازدحاماً. . كان يتوقف ما بين فترة وأخري كلما وقعت عيناه علي شيء باق كما هو. . كالصيدلية وبعض المحال. . وأخيراً توصل إلي مكان الفيلا. . وقف أمامها صامتاً كأنه يقف أمام باب التاريخ يسترجع أحداث سنوات طويلة، إلا أنه شعر بشيء من الإحباط عندما لاحظ وجود بناء جديد قد شيد بجوار الفيلا مكان قطعة الأرض الفضاء التي كانت توجد فوقها عشة أبويه الحقيقيين. . و. .

في هذه الأثناء فوجيء بكرة مطاطية تطير من فوق

سور الفيلا ويتـبعها طفل صغير لم يتـجاوز العاشرة من عمـره فلحق بهـا طاهر ومدها إلي الطفل وهو ضـاحك الوجه. ولكنه سرعان ما عاد إلي عبوسه عندما تقدم منه طفل آخر ضال يمتهن التـسول وهو يرتدي ملابس ممزقة، حافي القـدمين يطلب منه المساعدة.. فـتسمـر أمام هذا الطفل وكأنه يتساءل في نفسه أي مصير كان سيصبح له.

استدار عائداً بعد أن ناول أحدهما الكرة والآخر بضعة قروش وراح يقطع طريق عودته علي قدميه.. متنقلا من شارع إلي آخر من شوارع مـصر الجديدة.. ولكنه توقف فجأة أمام مـبنيين مهيبين أحدهما لجـامع والآخر لكنيسة وكلاهما يكاد يلتـصق بالآخر. تسمرت قدماه أمـامهما، وقد تلاحقت نبضات قلبـه في خشوع ورهبة وهو يتابع النظر إليهما مشتت الفكر حائر الأمر.

شعر بقـدميه لاتقويان علي حـمله، فالتفت مستـدعيا سيـارة أجرة مارقة من أمـامه، وكأنه يبـحث عن وسيلة للخلاص من حيرته وردد لسائقها قائلا:

- المعادي من فضلك.

وهناك لم يكـن يعلم بالمفـاجـأة التي تـنتظره، حـيث

فوجيء بوجـود سامي وسناء ينتظرانه أمام باب الفـيلا، وما إن هبط من السيارة حتي لحق به سامي قائلاً:

- أين كنت يـا طاهر فنحن نـنتظرك منذ أكـثـر من ساعتين.

أجاب متوجساً:

- هل حدث مكروه لأحـد.. أمي.. أبي.. عمي.. زوجة..

ولكن سناء تقاطعه قائلة:

- نحن جميعاً بخير.. ولكن..

وهنا تدخل سامي في الحديث قائلاً:

- اسـمع يـا طاهر.. أنا سـوف أدخل فـي الموضـوع مباشرة، لقد قررت أنا وسناء أن يتم زواجكما اليوم حتي تنتهي هذه المسألة الهزلية.

تقلصت أسارير طاهر للمرة الأولي وهو يردد:

- هل تعتقد أن ما أنا فيه الآن مجرد مسألة هزلية؟

تدارك سامي سريعاً وهو يقول:

- لا أقـصد ذلك.. بل أردت أن أخـبـرك بأننا أولاد عمومة مهما حدث.. ولن أرتضي أن يفرق بيننا أحد..

حتي ولو كان هذا الإنسان هو أبي أو أمي. وأنا أعلم أن سناء تحبك وكـذلك أنت تحبهـا.. فتزوجا وسـأتحمل أنا غضب أمي وأبي.. لأنني أحبكما أنتما الاثنان.

عاد طاهر إلي هدوئه وهو يقول:

- قد تكون تلك هي المرة الأولي التي أصارحك فيها، بأن حبي لسناء يفوق كـل الحدود، وأنا يشرفني أن أرتبط بها إلـي الأبد، كما يشـرفني موقـفك هذا.. ولكن في نفس الوقت يجب أن تعلم أنني لا أخشي غـضب عمي أو زوجة عمي أو..

لاحقه سامي ببشاشة:

- إذن إذا كان الأمـر هكذا، فلاداعي للتأخيـر وهيا بنا لنتم مراسم الزواج.

أجاب طاهر هادئاً:

- دعني أكمل حديثي معك.. فأنا حقاً لا أخشي لومه أحد أمام حبي لسناء.. ولكني أخشي غضب الله.. وما كنت أغضبـه من قبل حتي أغضبه الآن.. أرجـوكما أن تمهلاني فترة قصيرة.. لعلى أعرف طريقي.. و..

واستدار إلي داخل الفيلا.

[١٠]

لم يتوقع طاهر أن يكون المستشار عمرو عبدالحميد في انتظاره علي غير العادة، خارج غرفة مكتبه.. حيث فوجيء به جالساً في مواجهة باب الفيلا، وما إن رآه حتي بادره قائلاً:

- هل التقيت مع سامي وسناء؟

تردد لحظة قبل أن ينطق بحرف، ولكنه ما كاد يفعل حتي لاحقه مستطرداً:

- لقد كانا هنا في انتظارك.. هل يحق لي معرفة نتيجة لقائك معهما؟

اقترب قليلاً، ثم جلس أمامه علي المقعد المقابل.. وأجاب:

- لك الحق في كل شيء يخصني.. أما بالنسبة لهما فأنا فقط أوضحت لهما بعض الأمور.

- هل قبلت فكرتهما؟

أشار برأسه نافيا دون أن يتكلم.. بينما أردف عمرو قائلا:

- كنت أعلم أن أخلاقك لن تسمح لأي تصرف مماثل لرغبتهما ولكن هذا لاينفي أن ابنه عمك تحبك بإخلاص وإني لأتمني أن تكون من نصيبك.

قال دون تذمر:

- هذا الأمر لن يحسمه إلا الله.. ولكن هناك ما يقلق بالي ويزيدني اضطراباً وحزناً.

سأله بلهفة صادقة:

- أي أمر يابني؟

أجاب بهدوء شديد:

- موقف والد سناء منك، وموقف زوجته من أمي وتلك القطيعة التي تسببت فيها بينكم دون إرادتي..

وهنا نهض عمرو متحمساً وهو يقول:

- أبداً يا طاهر أنت لست سبباً لما حدث، ولكن المفاجأة هي التي سيطرت علي تصرفات عمك وزوجته.. وإنهما يحبانك بلا شك، وأنا أعلم أنه الآن

في ضيق شديد بسبب فراقك عنه . . دع الأيام يا ولدي فهي كفيلة بأن تعيد الأمور إلي نصابها الصحيح . . والآن اصعد إلي غرفتك لتستريح .

يستريح . .

كلمة كان طاهر تواقاً لأن يصل إلي معناها . . كيف يستريح؟

والليل بالنسبة إليه بات وكأنه عباءة للماضى تلتف حوله كلما حاول أن يغمض جفنيه لحظة .

كيف يستريح؟

وشمس نهاره تذكره دائماً بأنه مجرد خطوات بلا طريق . .

نبضات بلا صدي . . وكيان بلا ظلال .

كيف يستريح؟

وهو غريب وسط الرفاق . . حبيب يكتم الأشواق . . قريب يلهث وراء الآفاق . . مكلوم القلب والأحداق .

من أجل هذا، لم يجد مفراً من مسايرة رغبة ملحة عليه وهي أن يذهب إلي سليمان بك والد سناء وسامي .

وفي صباح اليوم التالي . . اتجه مباشرة إلي الرجل

الذي ظل طوال سنوات عـمره يناديه بـ «عـمي». . ولم يتردد في اقـتحام مكتـبه داخل الفيـلا. . وبمجرد أن رآه جالساً خلفه، بادره قائلا:

- جئـتك. . لا شاكيـاً أو متـوسلاً. . ولكني أريد أن أعرف ما الذي جعل موقفك تجاهي بهذه الضراوة.

حاول أن يكون مجاملاً وهو يجيبه:

- يا ابني أنت ليس لك ذنب فـيمـا حدث أو يحـدث الآن.

قال بإصرار:

- ولكنك لم تجبني.

انشغل عنه برهة وهو يرتب بعض الأوراق فـوق مكتبه ثم قال وهو زائغ البصر:

- الدين. . والحياة. . والتشـريع، يقولون. . الأقربون ثم الأقربون.

قال مسرعاً:

- وبني آدم ما موقفه؟ ألست أنا بني آدم. .

أجابه بلا مقدمات.

- نعم أنت ابن آدم. . ولكن

تعمـد أن يشغل نفسه مـرة أخي، بإشعال سيـجارة ثم استطرد قائلاً:

- ولكن قوانين الدنيا تقول إن..

قاطعة طاهر بلا إرادة:

أنا حاصل علي درجة الامتياز في الليسانس.. وأهيىء نفسي للحصول علي الدكتوراه في القانون.. فأي قانون الذي تقصـده يا عمي.. أقـصد ياسليـمان بك..أزدرد سلميان ريقه قبل أن يقول:

- هل يعلم أخي أنك قادم إلي؟

- لا.

ابتسم في رضا تام وهو يقول:

- لو علم ما كـان منعك.. لأنه متأكد من إحـساسي تجاهك.. أنا أمـضيت أغلب سنوات عمـري في الغربة ولكن هذا لايمنع أنني لا زلت شرقيا.. و..

قاطعة بتأدب:

- الله ليس للـشـرق فقـط دون الغـرب.. الله خلق السموات والأرض وما بينهما.

أجابه بصدق:

- وانا يا ولدي أحمد الله أنك ابن أخي.

كادت الأرض تميد من تحت قدميه وهو يردد

- ابن أخيك.. هل قلت أنني إبن أخيك؟

- أجل يا طاهر.. ولكن المفاجأة كانت أقوي من تفكيري.

ازداد طاهر اطمئناناً وهو يقول:

- ثق يا عمي أنني لن أفعل ما يغضبك.. ولكن لي رجاء واحد عندك.

- أخبرني به وسأحققه لك بإذن الله.

- أريد أن تعود إلي إخيك.. واترك مصيري لإرادة الله، فعساه يرضي عني ويرضيني.

استدار سليمان بك دون أن يجيبه، وتناول سماعة التليفون، وبعد أن أدار بضعة أرقام ردد قائلاً:

- يا عمرو ابننا طاهر عندي فلا تقلق عليه.

ثم ابتسم بهدوء وهو يضع السماعة، ونظر إلي طاهر نظرة ملؤها الحنان والحب، ولم يستطع طاهر بعدها أن يقاوم رغبته في عناقة، فأسرع إليه محتضناً إياه وهو يقول:

- لقد أعدت لي الثقة في نفسي يا عمي.. و..

استدار منصرفاً، ونبضـات قلبه تتتابع في فرح ونشوة، وتوالت الليالي بعد ذلك اللقـاء في هدوء حذر، كغليان البركان تحت سطح قشرة الأرض، أو خلخلة الزلازل في باطنها، كـلاهما يبحث عن درب يسلكه غيـر عابيء لما يمكن أن يحدثه من آثار.

فوجيء طاهر ذات ليلة بالمرسال ضيفاً عليهم في فيلته، وجده ينتظـره مع أبويه الحاليين وما إن رأتـه نرمين حتي بادرته قائلة بخوف شديد:

- ياطاهر هذا الرجل جاء ليأخذك منا..

ولكنه تماسك وهو بخبرها:

- اهديء يا أمي.. ولاتنزعجي هكذا.. و..

التفت إلي الرجل الذي بادره في سماحة وطيبة قائلاً:

- أستاذ طاهر يا ولدي.. لقد جئتك لأنقل إليك رغبة أهلك وعماتك وخالاتك في رؤيتك.. يريدون منك أن تستلم ميراث أبيك وأمك.. هم يطلبـونك للخير والأمر متروك لإرادتك يا ولدي.

اقترب منه طاهر في تؤدة ثم قال:

- هل أرسلك عمي لكي تقول ذلك؟

أجاب الرجل في ثقة:

- الشيء الذي لاتعرفه هو أنني زوج عمتك أيضا.. ولقد جئت إليك بناء علي رغبة العائلة بأجمعها.. وتركوا لك الخيار فيما ستفعله، ما يأملونه هو أن يروك بعد أن علموا بالحقيقة.. فذلك حقهم عليك وأيضاً حقك عليهم.

اتجه طاهر نحو المستشار عمرو ثم التفت إلي الرجل قائلاً:

- هذا ما سيحدده أبي.

تساقطت الدموع من عيني نرمين وهي تردد موجهة حديثها للضيف قائلة:

- أسمعت لن يفعل شيئاً إلا بإرادتنا..و..

هنا قاطعها عمرو بحدة قائلاً:

- كفي يا نرمين..

ثم نظر إلي طاهر بحب وهو يقول:

- ليس من العدل ألا يري طاهر أهله.. وأما إذا كان يريد غير ذلك فأنا معه..تقدم طاهر نحو نرمين بهدوء

شديد، وتناول كفها برفق، ثم قال بعد أن قبل يدها:

ما الذي يرضيك يا أمي؟

رمقته بحنان.. ثم قالت:

- يرضيني أن تكون سعيداً.. مهما كان اختيارك.

أجاب وهو يربت علي كتفها بحنان:

- لاتراوغيني يا أمي.. ماذا يرضيك؟

قالت بسرعة:

- لو ذهبت.. حاول أن تعود مسرعاً.

كانت المرة الأولي التي يضحك فيها طاهر بصوت مسموع منذ أشهر طويلة.. ثم قال وهو يحتضنها:

- كنت أعلم أنك لن تأمري إلا بالذي يرضيني.

فجأة صاح المرسال قائلاً بسعادة:

- لقد صدقت إرادة الرب.. أسيوط بأكملها يا ولدي ستنتظر مقدمك إليها.. نحن فخرون بك.. سيكون قدومك هو أول فرحة بعد مقتل ابن خالتك الشهيد سمير ضابط الشرطة.

أسرعت نرمين إلي المرسال في لهفة قائلة:

- ابني أمانة في عنقكم.. احموه من كل سوء.

تدخل عمرو قائلاً وهو يرمق طاهر بنظرة خاطفة:

- يا نرمين أنت افترضت أنه ذاهب فعلاً.. ألا تنتظري رأيه في هذا الأمر.

أجاب طاهر مسرعاً:

سأذهب.. يا أبي.. ولكني أعدك بأنني سوف أعود.

صاح المرسال مبتهجاً:

باركك الرب يا ولدي.. باركك الرب وخلصك من كل خطيئة.

تقدم طاهر نحوه بخطوة، ثم قال:

- يا زوج عمتي.. ساحضر إليكم والله يفعل ما يريد.

نجح طاهر تماماً، في أن يخفي حقيقة ما يحدث في وجدانه، حيث بدا أمامهم متماسكاً هادئاً وكأن الأمر يبدو طبيعيا بالنسبة له.. ولكن الحقيقة أنه كان يخفي صراعا عنيفاً، وتوتراً شديداً يسيطر علي كيانه كله.. فهو كالأعمى الذي يوجهه الآخرون من علي البعد، فيتقدم بخطواته وهو لايعلم أيهما أصدق من الآخر وإلي

أين سوف تؤدي به خطاه.. ولولا إيمانه الشديد بالله لسقط فريسة الشك والتشكيك، والضياع والتردد.. ولكنه كان متين الخلق، سوي الفكر، هاديء الطبع، قوي الإرادة لم تعد قضيته هي أن يعرف حقيقة وجوده ولاكيف يسترضي أبويه الحاليين، أو يكسب ثقة عمه.. أو حتي أن يحقق حلم حبه الكبير مع سناء.. قضيته هي البحث عن الطريق.. مهما كان حتي ولو أدي به الأمر في النهاية إلي أن يكون بلا هوية.

وبدأت الأيام تسحب وراءها ساعات الترقب.. الجميع في انتظار قراره للذهاب إلي أسيوط.. البعض يأمل أن يتراجع، والبعض الآخر يأمل في عودته سريعاً.

بينما هو تسيطر عليه رغبة مبهمة، لايدري من أين مبعثها، أهو الاحساس بالخوف أم تزايد حدة الحيرة في أعماقه، تلك الرغبة جعلته ذات مساء يتوجه مباشرة إلي الجامع القريب من فيلته والذي طالما مكث فيه كثيراً، متعبداً شغوفا لسماع دروس النهج القويم، حتي ازدادت صلته بخطيب الجامع تودداً وهو رجل دين متعلم ومثقف غير متطرف ولا متهاون.

وبعد صلاة العشاء اقترب منه في هدوء وسكينه،

وألقي عليه السلام ثم جلس بجواره شارداً مما دفع الرجل إلي أن يسأله:

- مالك يا ولدي.. أراك مهموماً وكأنك حزين.

كانت تلك المبادرة، بمثابة طوق النجاة بالنسبة لطاهر، فلم يتردد لحظة في أن يسرد علي الفقيه كل قصته منذ بدايتها وصرح له بما يجيش في صدره من حيرة وصراعات لاحد لها.

قال الرجل بنبرة هادئة:

- يا بني الله لايفرق بين عباده.. له ملك السموات والأرض وما بينهما.. يقول تعالي في كتابه الكريم «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل علي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسي وعيسي والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» صدق الله العظيم.

همهم طاهر قائلا:

- ونعم الله.. ولكن.. يا أستاذي الجليل الحياة

الدنيوية لها رأي آخر معي، والظروف وضعتني في حيرة ليس لي ذنب فيها ولا إرادة.

أجاب الرجل في سماحة:

- ولم الحيرة ياولدي.. يقول الله تعالي في سورة البقرة «ووصي إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفي لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون» صدق الله العظيم.

فأسلم وجهك لله، ولاتجعل الحيرة تأكل قلبك، وكما قلت لك إن الله لايفرق بين عباده. ويقول تعالي «يا أيها الناس اتقو ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» صدق الله العظيم.

فكيف تجعل من نفسك فريسة لتشتت الأفكار، وأنت لازلت في مقتبل العمر؟

اغرورقت عينا طاهر بالدموع وهو يردد في خشوع:

- أنا أخشي الله يا أستاذي، ولكني عزمت علي السفر إلي أسيوط فهل جانبني الصواب فيما عزمت؟

ابتسم الرجل في رضا تام، وكأنه أدرك ما يدور في خلد طاهر ثم قال:

- يقـول الله تعالي في سـورة الصف ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّه كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّه قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّه فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ(١٤)** ﴾ صدق الله العظيم.

فاذهب يا ولدي حيث شئت، ولاتقطع صلة الرحم.. وكن ودوداً للجـميع.. مسلـماً مع النفس، صـادقاً في القـول.. كريماً فـي العطاء زاهداً عن الفـواحش فاعـلاً للخير، سليم النية.

انفجرت أساريره وهو يقول مسرعاً:

- يشهـد الله أنني ما أقدمت علي خطيئـة يوماً.. ولا سعيت إلي الشر لحظة.. ولا فرقت بين أحد، ولا كنت طاعناً أو لعاناً ولا فاحشاً وبذيئـاً.. ما حقدت علي أحد يوماً وما حسدت.. وأخشي الله في كل تصرفاتي.

أجابه الرجل بوجه بشوش:

- بوركت يا بـني.. الإسـلام يدعـوك إلي الخـير والصدق. والمغفرة عند المقدرة ومقاومة الظلم وإعطاء كل

ذي حق حـــقـــه.. وأن تؤمن بـأن لا إله إلا الله، وأن تصدق القول والفعل.. يدعو إلـي الهداية ويبشرك بيوم البـعث.. وأن تتـبع العـدل وتدعـو للسلام فـلا تحـزن ولاتخش إلا الله.. وأعلم أن الدين لله وحده.

وصدق رسول الله صلي اللـه عليه وسلم حين قال.. «الأنبياء أخوة أمهاتهم شتي ودينهم واحد»..

سكن الاطمـــئنان قلب طاهر وهو ينـهض من جـوار الرجل هانئاً وراضيا ثم قال مبتهجا:

- السلام عليك.

ودعه الرجل بابتسامه رائعة وهو يجيبه قائلاً:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

[١١]

كان صباحاً غـير كل صباح، وطاهر يطأ درجات سلم القطار المتـجه إلي أسـيوط، والشـمس تتأهب للـشروق الكامل عند الأفق البعيد.

اتخذ لنفـسه مكاناً بجوار إحـدي النوافذ، وراح يتطلع في شرود وكـأنه يبحث عن نـفسه بين وجـوه الراحلين والعائدين. كان بلا حقـائب ولا أوراق.. لايحمل شيئاً سوي أفكار مشتتة، وحويصلات من الغموض فوق رئتيه تزفر حيرة و تشهق تردداً.

السـاعـات طويلة وعـجـلات القطار تزأر من صـدي سرعتـها فوق القضبان، وهـو قابع في سكينة يحاول أن يرتب أفكاره، ويلملم شـتات أشجانه، سـاعياً لثـبوت النفس وهدوء القلب.. حاول أن يغـمض جفنيه، لعله يستجمع بعض نشاطه حـيث إنه لم يهنأ بنوم مستقر منذ

أن أرسل برقيته ليخبر أهله في أسـيوط بموعد قدومه كما إزداد الأمـر توتراً للحالـة التي كانت عليـهـا نرمين منذ علمت بموعـد رحـيله ولكنه فـشل في المحاولة مـراراً. فكلما أغمض جفنيه تهاجمه أحداث الماضي وتسحبه إلي دومـات لانهاية لهـا وحين يطلق سـراح جفنيـه يصطدم بواقعـه الغامض فيـذوب في حيرته بـلا معين لذلك آثر الاستسلام في شرود.

وما إن توقـفت عجـلات القطار عند محطة أسـيوط، حتي كادت أن تتوقف نبضـات قلبه.. وما كاد أن يهبط منه حـتي تراجع متـردداً عندما لمح المرسـال زوج عمـته بجوار أحـد القسـاوسة وسط حـشد كـبير مـن الرجال والنسـاء والشـباب والأطـفال جـمـيـعهم يحـاصـرونه بنظراتهم، ولم يجـد مفـراً من النزول إليهم إذ اندفـعوا وراء المرسال الذي احاطه بذراعيه قائلاً:

- أهلا بك وسط أهلك وعشيرتك يا ميخائيل.

حاول أن يبـتسم، أو أن يجيـبه بكلمـة إلا أنه فوجيء بالأيادي تمتد نحوه في محاولة لأن تتلمسه وسط كلمات الترحيب الصادرة من هنا وهناك حتي كاد يتلاشي صوت المرسال وهو يجاهد في ملاحقة تقديمهم إليه مردداً:

- هذه عمتك، وابن عمك، وخالك، وعمتك الثانية، وخالتك وابن خالة أبيك. .و ابنة عم. . وهكذا.

بينما وقف طاهر وسطهم لاحول له ولا قوة، لايملك سوي ابتسامة هادئة فوق شفتيه، وبعض الإيماءات من رأسه غير المفهومة ساعة من الزمن كاملة وهو يقف بينهم مشدوها، لم ينقذه سوي رأي أحدهم قائلاً:

- دعوه الآن، ولنكمل التعارف في المنزل.

وتحرك موكب السيارات تتقدمهم السيارة التي استقلها طاهر ويقودها زوج عمته الذي جلس بجواره القس، بينما جلس طاهر في المقعد الخلفي بجوار فتاة شابة رقيقة الملامح.

وفي الطريق التفت إليه القس قائلاً:

- أنا القس يوسف ابن عمتك يا ميخائيل

وقبل أن يجيبه، لاحقته الفتاة التي بجواره قائلة:

- وأنا الدكتورة ماري ابنة خالتك وأعمل في مجال الصيدلة.

همس في هدوء قائلاً:

- أهلاً. أهلا بكما. .

وأخـيراً وصل مـوكب السيـارات إلي داخل فناء المنزل الكبـير وفـوجيء طاهر بحشـد آخر في انتظاره، حـيث تدافع الجميع نحوه.. البعض يقبله والآخر يحتضنه وهو مســالم ومستـسلم تماماً إلي أن تدخلت الدكتـورة ماري قائلة:

- دعوه يا خالة يستريح قليلاً من عناء السفر..

لكن هيهات أن يفعلوا ذلك..

كانت السـاعات الأربع الأولي التي قضـاها بينهم بمثابة دعوة للتـعارف حيث استطاع بـصعوبة بالغة أن يتـعرف علي الجميع سواء كانوا أقارب أم أصدقاء للعائلة.

وبعد إنصراف من ليس لهم رابطة الدم، بدأت الألسنة تلوك أحداث القصة القديمة.. كل حسب طريقته.

.. أطيانك في الحفظ والصون يا ولدي.

.. أبوك سامحه الرب كان السبب فيما حدث.

.. فرحتنا بوجودك أنستنا كل الأحزان.

.. هل تعلمت الضرب بالبندقية؟

و.. مضت الليـالي وليس في مقـدور طاهر أن يؤقلم نفســه علي حياته الجـديدة.. فلم تزل أحاسـيس الغربة

تسيطر علي مشاعـره، لولا التقارب السريع لاذي تم بينه وبين الدكـتورة مـاري التي دأبت علي مـلازمتـه في كل مكان وفي أكثر الأوقات. .

وفي أحد اللقاءات بادرته قائلة:

- سمعت أنك تنوي التحضـير للدكتوراه في القانون يا ميخائيل. .

- نعم هذه كانت إحدي أمنياتي. .

تساءلت في براءة. .

- لماذا تقول كانت. . ألم تعد تلك هي أمتنيك؟

تنهد بعمق قبل أن يجيب:

- نعم لازالت تـلك أمنيـتي. . ولكن لا أعلم مـاذا يخبيء لي قدري.

فاجأته قائلة:

- اعتـقد أن الأمـور قد اتضـحت الآن. . علي الأقل بالنسـبـة لك بالرغم من تأكـدي بأن الأمـر لـيس هيناً عليك. . بالمناسبة أنت لم تخبرنى عن حياتك الخاصة. . أم أنك لاتود ذلك.

- أنا ليست لي حياة خاصة، كـما تتصورين. . حياتي

كانت كتاباً مفتوحاً، صفحاته واضحة لانني لم اعتد علي اي تصرف في الخفاء ابتسمت وهي تسأل في حياء:

- وقلبك.

- حتي ما يخص قلبي، كان واضحاً.. فأنا أحببت ابنه عمي سناء، والجميع كانوا يباركون ذلك الحب.. و..

صمت برهة ثم استطرد:

- أقصد ابنة سلميان بك شقيق الرجل العظيم الذي قام برعايتي.

قالت بصدق:

- هل تدرك أنني أشعر تجاهك برابطة قوية.. كما لو كنا متلازمين منذ طفولتنا.. أشعر بالأمان نحوك، وأرغب في مشاركتك كل أموري الخاصة والتي كان يصعب علي أن أبوح بها لأقرب الأقربين لي.

تساءل في مودة:

- وهل لك أمور خاصة تخفينها عن الآخرين.

قالت بلا تردد:

- نعم.. فأنا أعيش مشكلة تقترب من المأساة.. لو

عرفـتهـا لهانت عليك مـشكلتك، لأنك علي الأقل في النهـاية صاحب القـرار. . أمـا أنا فلا أملك حـتي إبداء الرأي في مشكلتي.

- بالرغم من أنك متعلمة ومثقفة.

ابتسمت بسخرية مكتئبة:

- إلا في هذا الشأن. . لا التعليم ولا الثقـافة استطاعا أن ينقذاني مما أنا فيه الآن. . بل أنني أشعر بكوني أتعس مخلوقة علي وجه الأرض.

ملأت الدهشة نظرته وهو يقول:

- إلي هذه الدرجـــة. . لم أكن أتصـــور أن وراء هذا الوجه الجـميل والابتسامـة الرقيقـة كل تلك المعاناة التي تحاولين إخفاءها.

أجابت وهي تنظر إلي لاشيء.

- لاتتعـامل مع الناس بظواهرهم يا ميـخائيل. . فـقد لايكون بريق العين إلا دمعة حائرة. . والابتســامة الرقيقة ما هي إلا رعشة خوف فـوق الشفاء. . والخطي السريعة ليست بالضرورة دليلا علي أن صاحبها يدرك هدفه، فقد تكون كذلك بسبب الهروب من لعنة الظروف.

حاول أن يهديء من روعها وهو يقول:

لقد جعلتيني أتشكك في أنك دكتورة صيدلية.. أمتأكدة أنك لست خريجة فلسفة أو علم نفس.. أو ربما تكونين شاعرة.

لم تبتسم بل أردفت قائلة وكأنها لم تسمع تعليقه:

- أنا أعيش قصة حب محكوم عليها بالحرمان.. تقرر لها أن ترجم دون ذنب ارتكبناه.. تصور أن يتحول الحب الي لعنة تلحق بكل من يقترب منه.. بالرغم من أنني عشت أجمل أيام صباي في رحابه.. وتفتحت زهرة شبابي علي رحيقه.. كان زميلي منذ المرحلة الاعدادية، ومضت بيننا السنوات ونحن نحمل في قلبينا الصغيرين اجمل الأماني.. كبرنا معاً.. وتخصصنا في مجال واحد.. كنت أبدأ الجملة وهو ينهيها.. أسرح في خاطرة ما.. كان هو يكملها.. ولكننا لم نكن ندري أن علينا أن ندفع ثمن جريمة لم نرتكبها، أن نكون قرباناً لمعتقدات آثمة.. لم نكن ندري أن في بعض الأحيان باسم الباطل يزهق الحق.. وباسم المظاهر تقبر المضامين.. و..

قاطعها بلا إرادة:

- ولم كل هذا؟ ولماذا لايتوج حبكما بالزواج؟

أجابت نبرة ملؤها الحسرة:

- أهله يرفضون إقترانه بي.. ليس اعتراضاً علي شخصي ولكن بسبب مأساة الثأر التي بين عائلتنا وعائلة مرقص.. فهم يخشون علي ولدهم، ويخشون علي أحفادهم إذا أنجبنا.. يقولون كيف يتزوج ولدهم من عائلة محكوم عليها أن يقتل منها الواحد بعد الآخر في قضية ثأر متوارثة.. و..

أطلقت زفرة من صدرها قبل أن تستطرد قائلة:

- أرأيت كيف أن مشكلتي أكثر مرارة من حيرتك أو إحساسك بالغربة.

انتبه طاهر إلي سؤالها بعد أن كان متعايشا مع حوارها.. وأجاب:

- لم أكن أتصور قط أن الحياة التي فيها تراحم الأمومة، وحنان الأبوة.. وتغاريد الطيور وتفتح الزهور.. وأرزاق البحور.. ودفء الشمس ونور القمر.. وجمال الطبيعة وثمار الشجر.. وبراح

الصحـراء وسقوط المطر.. لم أكـن أتصور أن يكون بين كل هذا للظلم مكان.. ولم أكن اتصـور أن يكون وراء كل هذا هو الإنسان.

قالت بود حقيقي:

- أنت طاهر القلب يا ميخائيل.. و..

قبل أن تسـرسل فوجـئت بالقس يوسف يدخل عليـها الصيدلية التي تملكها قائلاً بلهفة:

- أخيراً وجـدتك يا ميخائيل.. لقـد بحثت عنك في كل مكان عندي لك أخبار سارة.

وقفت الدكتـورة ماري إجلالاً للقس، وتقدمـت لتقبل يده وبعـد أن انتهت نظرت إلـي طاهر الذي تقدم تجـاهه لمصافحته، فلاحقه القس يوسف قائلاً:

- الأب الأسقف نيافـة الأنبا إسكاريوس وافق علي أن تتحدث إليـه.. لقد حدثته عنك وسمـح لك بمقابلته يا ميخائيل.

ألقت الدكتورة ماري صيحة ملؤها الفرح وهي تقول:

- حقاً.. أقسم إنها مشيئة الرب

أجاب طاهر بهدوء وارتياح:

- كم أنا سعيد بهذا النبأ. . لقد كنت تواقاً إلي هذا

تراجع القس يوسف في طريقه للانصراف قائلاً:

- إذن موعدنا بعد باكر. . سأمر عليك عند عمتي ونذهب سوياً

أجاب طاهر بوجهه البشوش:

- سأكون في انتظارك. . و. .

والتفت تجاه ماري بعد انصراف القس يوسف. . واستطرد قائلاً بهدوء:

- يا أبنة خالتي. . من الآن لاتخشي شيئاً. . فأنا معك قلباً وقالباً. . ولا تيأسي من رحمة الله. . الله لم يخلقنا لكي نتعذب، لقد خلقنا الله في أحسن صورة. . يريد لنا الخير والسلام، المحبة والرخاء. . المودة وصلة الرحم. . الله خلق الانسان وكل الدواب لعبادته. . وفي عبادته كل الخير والرجاء. . فلا تقنطي من رحمة الله. . وما شاء الله فعل.

تناولت كفيه بين كفيها. . وقالت في نشوة:

- اليوم فقط. . بل هذه اللحظة. . أشعر بأنه قد اصبح لي درع أقي به صدري. . وأحمي به حبي. . وأثق في

خطواتي علي دربي.. اليوم فقط من حقي أن أصرخ وأقول.. أغثني يا أخي.

ولأول مرة في حياة طاهر يجد نفسه مدفوعاً برغبة صادقة إلي أن يقترب من جبهة فتاة.. ويقبلها بحب صادق.. ثم قال:

- لاتجزعي يا أختاه.. فإن الله معنا.. والله بمشيئته سيهديني إلي حل لمشكلتك.

رمقته بنظرة حب صادقة وهي تتساءل:

- ماذا يدور في خلدك؟

أجاب في عطف ظاهر:

- ألم تلاحظي أنك إلي الآن لم تذكري لي ما هو اسمه؟

سبقتها الفرحة وهي تجيب:

- اسمه عدلي.

ابتسم في صفاء تام، ثم قال:

- أخبري الدكتور عدلي، إن الله طبيب القلوب.. وهو العدل والعادل.. والله علي كل شيء قدير.

و.. قبل أن تتفوه بحرف واحد، كان طاهر قد

انصرف من أمامها في طريقه إلي مقر إقامته.. إلي حيث تلقفته الأقاويل والأسئلة.. نساء تلفحن بالسواد وتحصنن بدروع العزيمة والغلظة.. ورجال تنبض عروقهم بالكبرياء والعناد.. تجمعهم الرحمة المستترة، والحب الدفين.. ولايرون غير هالة الكرامة فوق رؤوسهم.. هم أطيب الناس في سبيل التواجد.. وأشرس الناس في طريق العناد.. أناس يطلبون العدالة أولاً قبل الحديث عنها.. يطلبون الصدق قبل تجارب الحديث.

راحوا يسألونه عن حياته السابقة.. وعن قراره.. كان البعض منهم تغلب عليه ثقافته فبدا مريحاً متفهماً، والبعض الآخر بدا متشدداً صلباً.. أخبروه بما يملكه من أموال وأطيان قد حجبوها عن والديه الحقيقيين إلي أن فوجيء بواحدة من عماته تقول كالصاعقة:

- لقد أرسلك الرب لكي تمحو العار الذي خلفه والدك.

تظاهر بأنه لم يفهم مقصدها.. وكأنه لم يسمعها.

كان طاهر حريصا علي أن يخبر أبويه الحاليين، بكل تفاصيل رحلته يومياً.. كان يدرك أن مكالماته الهاتفية

خاصة لنرمين سوف تهديء من قلقها، وتحملها ابتعاده عنها.

وفي صباح اليوم المتفق عليه حضر إليه القس يوسف ليصطحبه إلي الدير حيث موعده مع الأنبا إسكاريوس.

لازمته السكينة والطمأنينة وهو يدخل إلي الدير، وراح يتفحص المكان بعينه حيث الجدران المزينة بالأيقونات الأثرية، واصطفاف الشمامسة بردائهم المتميز، ورائحة البخور تعبق أجواء الدير.

وعندما وصلا إلي قلاية الأب الأسقف الأنبا إسكاريوس.. تراجع القس يوسف في هدوء، بينما واصل طاهر الخطي نحوه وما إن اقترب منه حتي بادره الأنبا قائلاً:

- السلام والنعمة لك.

أخذته الرهبة وهو يردد:

- السلام عليك.. أنا..

لاحقه الراهب قائلا بتودد:

- لقد علمت من القس يوسف بعض تفاصيل ظروفك.. وعلمت أيضا أنك تطلب النصح والإيضاح.

أومأ برأسه في إجلال وتقدير شديدين.. بينما أردف الأنبا إسكاريوس قائلاً في طيبة وسماحة:

- صلوات القديسين سوف تحفظك.. والرب قادر أن يثبتك ويعطيك حياة مقدسة.

انا لم اغضب الله قط.. اقصد حاولت أن أفعل ذلك..

قال بنبرة هادئة:

- الكتاب المقدس فيه عظات الكنيسة للشعب.. ويسوع المسيح دعوته للخير والسلام والحب.. دعوته خلاص من الخطيئة ونبذ التناحر والأحقاد.

أجاب بلا تردد:

- لقد أمضيت سنوات عمري أخشي الله في تصرفاتي.. أحب الخير والسلام.. لا أقترب من الخطيئة.. لا أعرف الحقد ولا البغض.

قال الأنبا إسكاريوس بحب صادق:

- يا ولدي الدين للرب وحده.. وهو القادر أن يحفظك وأن يثبتك..

لم يجد طاهر ما يقوله بعد ذلك، حيث ملأت السكينة

قلبه فتراجع بخطوة متأدباً وهو يهمس:

- السلام عليك..

فأجابه الأنبا مخلصاً:

- السلام والنعمة لك.

وانصرف طاهر من أمـامه في طريقـه إلي خارج الدير وهو يردد في نفسه.

- لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[١٢]

كان هو أصـعب قرار يمكن أن يـتخذه إنســان في هذه المنطقـة بالذات، قـرار يفوق فـجـيعـة الموت لدي أعـز الناس. . بل إن الموت قد يكون حلاً قدرياً لبعض الناس الذين أنتهكتهم سبل الحياة، وأذلتهم أمور الدنيا، بما فيها من مكتسـبات دنيـوية تفرض علي الإنســان الدخول في صراعات لانهاية لها. . صراع ليس من أجل البقاء فقط ولكنه أيضاً من أجل التكـبر والتجبـر، من أجل التعنت والتسلط. .

كـان قراراً فـيــه من الجـرأة ما يصـعب علي النفـوس الضعـيفة الإقدام عليـه. . وفيه من الحكمة التي تسـمو فوق كل الصغائر. . وفيه من الحب الذي يسع قلوب كل البشر.

قرار اتخذه طاهر الإنسان، بكل ثبات واتزان. .

دافعـه الرجولة والشهـامة، لا المذلة والمهانة.. دافـعه الحب والرحمة لا الخوف والرهبة.

وقامت الدنيا ولم تقعد بعد أن انتـشر نبأ قرار ميخائيل وسط أقاربه ومـعارفهم فـي أسيوط.. وانقـسمت الآراء بين مؤيد ورافض.. حاول البعض أن يلحق به لكي يثنيه عن قراره.. ولكن كان الأوان قد فات.. وأصبح الأمر حقيقة.. ميخائيل يحمل كـفنه متجهاً به إلي كبير عائلة مرقص.

وقع النبأ كالصاعقة فـوق عائلة بطرس ملاك.. خاصة نساؤها اللواتي كن كالحطب الذي يزيد اللهيب اشتعالاً.

صراخهن كـالعويل.. والرجال يتمـتمون في ذهول.. كانت المفاجأة أكـبر من كل تصوراتهم، وراحت الألسنة تلوك كل شيء.. وأي شيء:

.. ذهبت دماء العائلة هدراً.

.. فعلها ميخائيل.. ومن شابه أباه فما ظلم..

.. العار سيلاحقنا إلي الأبد..

.. سيقولون إننا نخشي بطش عائلة مرقص.

ويتدخل بعض العقلاء.

.. ربما تكون حكمة من الرب.

. . نحن عائلة كبيرة، وهذا الموقف سيرفع من شأننا.

. . كفانا قتالاً وقتلي.

وحسم أحدهم الأمر قائلاً:

- كل هذا لن يفيد الآن. . فالواقـعة قد حدثت وانتهي الأمر.

وبالفعل كـان طاهر في طريقه إلي كـبير عـائلة مرقص، وما إن وصل إلي منطقتـهم حتي فوجيء بحشد كـبير من رجال العائلة المسلحين مصطفين في تواز تام، عيونهم تكاد تنطق بالشرر، والنساء وراء السواتر يترقبن ماذا سيحدث. .

كان قرص الشـمس ملتهباً، يشاركـها في ذلك صدور الرجال وهم يكتمون غيظهم في الوقت الذي يرون طاهر وهو يسير بينهم في تؤدة حاملاً كفنة في ثبات غريب.

ثم ظهر كـبير عـائلة مرقص، يحـيط به بعض الرجال المتربصين كان الرجل قد تجـاوز السبعين بقليل، وبالرغم من ذلك كان مـنتصبـاً كجذع الـنخلة الشابة وفي عـينيه بريق الفطنة والتـحدي. . وما إن اقـترب منه طاهر بادره الرجل بنبرة قاسية:

- ماذا تريد يا ولد؟

حاول طاهر أن يتخلص من رهبة الموقف وهو يقول:

- أنا . .

ولكن الرجل قاطعه بحدة قائلاً:

- أعرف من أنت . . فأنت ميخائيل ولد إبراهيم بطرس ملاك ولقد عدت إلي أهلك بعد أن كنت تائهاً.

ازدرد ريقه، وكأنه يبتلع إحساس الخوف ثم أجاب:

- لقد جئتك واضعاً حياتي بين يديك.

قال الرجل في صرامة:

- ولماذا . . هل تريد أن تفتدي عمك فهمي؟أم . .

وتجرأ طاهر وهو يقاطعه بلا إرادة:

- عمي فهمي تم الحكم عليه بالإعدام . . ولم أحضر لهذا السبب . .

- إذن ماذا تريد؟

- أريد حقن الدماء . . ولو كانت حياتي هي القربان فأنا لها . . وها هو كفني . . وتلك هي رقبتي . . و . .

وهنا تدخل أحد الرجال المتهورين قائلا:

- أنت لست من عائلة بطرس ملاك . . كما أنك مازلت صغيراً . . و . .

وصمت الرجل مقهوراً، عندما صاح فيه كبيرهم بصوته الأجش قائلاً:

- اخرس يا ولد وإلا جعلتك طعاماً للكلاب.

ثم التفت إلي طاهر، وهو لايزال محتفظاً بقسمات وجهه الجامدة وقال:

- وأهلك يعرفون أنك قادم إلي هنا؟

تحسس طاهر كفنة بيده.. ثم أجاب:

- ما الفرق يا كبير.. فأنا ميخائيل بن إبراهيم بطرس ملاك وجئتك لتقول كلمتك في أمري.

تقدم الرجل بخطوة نحو طاهر.. ثم تساءل في نبرة أقل حدة:

- كم عمرك يا ولد؟

- العمر لايحسب بالسينين يا كبير.. ولكن يحسب بما يواجهه الإنسان في الدنيا.

- وما الذي دفعك إلي هذا التصرف؟

- أطلب حقن الدماء.. وليكن دمي هو آخر قطرة دم تسيل بين العائلتين.. نحن يا كبير جيل مظلوم، وندفع ثمن أخطاء الأجيال السابقة.. وإذا استمر الحال علي ما هو عليه سوف تدفع الأجيال القادمة الثمن دون ذنب مثلنا.

انتفخت عروق رقبته من شدة الانفعال، وعندما هاجمته ذكريات سنوات طويلة مضت.. قال بغلظة:

- أهلك الذين بدأوا بالعـداء. . فهم إمـا متغـطرسون وإما جبناء.

أدرك طاهر أن الرجل يلمح بقـصة أبيـه الذي هرب. . فأجابه في نبرة هادئة:

- إن كنت يا كبير تصف بعـضهم بالغطرسة، فهم بلا شك قـد نالوا من الألم والعذاب القـسط الكافي. . وإن كنت تصف البـعض الآخر بالجبن، فلمـاذا لايكون ذلك نوعا من التعقل.

ازداد الرجل حماسا وهو يقول:

- ومن أين أتاك أنني سوف أعفو عنك وعنهم.

وقبل أن يجيـبه، يتدخل الرجل المتهـور مرة أخري في الحوار قائلاً بعصبية:

- إننا لانخـشي أحـداً. . ولانقـبل وسـاطة أحـد. . ولانريد من القانون أن يـأخذ حقنا. . نحن أسـياد البلدة والكل يعلم ذلك بما فيهم عائلتك. . و. .

ولكنه اضطر للصـمت عندمـا فـوجيء بلكز قـوية من عصا كبيرهم في صدره، كادت تشق قلبه. . وهو يقول:

- ألم أقل لك أن تصمت يا ولد.

ثم التفت إلي طاهر قائلاً:

- ولماذا لم يحضر كبيركم؟

قال بتلقائية:

- الكبير هو الذي يعفو، وهو الذي يتسامح يا كبير.

فاجأة بقوله:

- وإن قتلتك الآن؟

- إن كان ربي قد قدر لي الموت الآن فلا مفر سواء جئتك أو لم أحضر إليك.

اقترب منه بخطوة ثابتة، ثم قال في تؤدة:

- أشعر بالصدق في قولك يا ولد.. و..

صمت لحظة وهو يعبث بأصابعة فوق قمة عصاه.. وأردف:

- ولكني لا أثق في عائلتك.

انحني طاهر قليلاً، وهو يضع كفنه أمام قدمي الرجل ثم استقام مرة أخري.. وقال:

- إني أضع حياتي بين يديك.. والبلدة كلها علمت بأن ابن عائلة بطرس ملاك قد حضر إليك وهو يحمل كفنه.. فإذا لم يكفك هذا، فما عليك إلا أن تأمر أحدهم بقتلي.. وسأكون واحداً مثل الذين قتلوا من قبلي بلا ذنب ارتكبوه..

- أفصح يا ولد. . ماذا تقصد بكلامك هذا. .
في هذه المرة تقدم طاهر منه بخطوة. . ثم قال بصدق:
- قضية الثأر يا كبير بسبب عادات متوارثة. . قد تكون بسبب مراحل الظلم والاستعباد. . أو بسبب الجهل الذي فرضته الإرساليات الاستعمارية. . ونحن اليوم نتعرض لهجمات إرهابية تريد بنا السوء وتريد لبلادنا الهوان. . فهل نساعدها بجنون الثأر أم نتكاتف لكي نقطع دابرها؟

مضت لحظات صمت عصيبة، والرجل يطيل النظر في عيني طاهر ثم تحرك وهو يتكيء علي عصاه بشموخ وسار بضع خطوات قليلة في الاتجاه الآخر. . ثم توقف فجأة والتفت للجموع المحتشدة وصاح بصوت جهوري لايتناسب مع سنوات عمره قائلاً:
- أقيموا السرادقات. . واذبحوا الذبائح. . فاليوم سنتقبل العزاء في قتلانا. . و. .

وفجأة انطلقت الزغاريد من كل مكان وراء السواتر. . واختلطت الأصوات والهمهمات ما بين معارض ومؤيد. . وأطلقت الأعيرة النارية في الهواء الفسيح. . و. . تقدم الكبير نحو طاهر حتي بات علي مقربة منه قائلا:

- لقـد حـققت المـستـحـيل يا ولدي. . فـاذهب إلي أهلك. . وأخـبـرهم بـأنه لن يكون بيننا وبـينكم غـيـر السلام. . ولا ثأر بعد اليوم.

كانت سعادة طاهر بالغة بحق، إذ استطاع أن يحقق مالم يستطع أحد من العـائلتين أو من رجال القانون تحقـيقه. . أوقف نزيف الدماء بكلمـاته الصادقة، وأطفـأ لهيب الغل بشجاعته الفائقة. . كما أنه لم يجد صعوبة كبيرة في شرح موقـفه إلي عائلتـه، حيث تخلص البـعض المتغطرس من عناده واستقطب البعض الآخر إلي جانبه وكأن الجميع كانوا يأملون في هـذا ولكن لم تكن لدي أحـدهـم القـدرة علي المغامرة باسمه وسط أقرانه وأهالي البلدة.

كانت الوحيـدة التي لم تستطع أن تخفي سـعادتها هي الدكتورة ماري التي بادرته وسط دهشة الجميع قائلة:

- لقد أتيت بالسعادة إلي ديارنا بقدومك يا ميخائيل. . وأدخلت الفرحة إلي قلوبنا.

فرمـقهـا بنظرة أدركت هي معناها، وتوردت وجنـتاها خجلاً وهو يقول:

- آمل أن أتلقي الدعوة قريباً.

و. . تساءلت عمته في نبرة جادة:

- أية دعوة تقصد؟

التفت إليها قائلا بتأدب:

- لقد قررت السفر بعد غد إلي القاهرة.. فلدي أمور كثيرة يجب أن أتمها خاصة بسفري إلي فرنسا..

تدخلت إحدي قريباته محتجة:

- أنا لا أري ضـرورة لسفـرك بعد الآن.. أطيـانك يا ولدي في حاجة لرعايتك ثـم أن هناك الكثير من الأمور يجب حسمها.

أجاب طاهر في هدوء شديد:

- هناك من ينتـظرني يا خـالة.. وأنا أخـشي قلقـهم علي..

بادرت عمته تقول بحزم:

- ولكن ستعود سريعاً أليس كذلك؟

قال بصدق:

- الله وحده يعلم المصير..

و.. كان طاهر صادقـا فيما يقول ويشعـر.. فبعد أن تراكمت أمامه الأحداث، وتشابكت الأفكار في مخيلته، هرع إلي ربه في مناجاة صامتـة مع نفسه مردداً دعا النبي عليه السـلام «اللهم إني أسألك الفوز في القـضاء ونزل

الشهداء وعيشة السعداء، والنصر علي الأعداء، اللهم إني أنزل بك حاجتي فإن قصر رأيي وضعف عملي افتقرت إلي رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور وياشافي الصدور كما تجير من في البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن فتنة القبور».

وفي صباح اليوم الذي تقرر فيه سفر طاهر إلي القاهرة اجتمعت العائلة وبعض المعارف في منزل العمة تمهيداً لمرافقة طاهر إلي محطة القطار القادم من مدينة الأقصر.. وحاول المرسال زوج عمته أن يخفف من وطأة الموقف المتوتر.. فقال مازحاً:

- احمد ربنا أنك متعلم، لان قطار الاقصر ممتليء بالسياح الأجانب.. من كل الجنسيات ومختلف الأديان.. علي الأقل سيكون في مقدورك التفاهم معهم.

لم يبتسم أحد سوي الدكتورة ماري والقس يوسف الذي قال معقباً:

- اذن هيا بنا لكي نصل في الموعد المحدد.

وهناك.. كانت المفاجأة الكبري، عندما وجدوا كبير عائلة مرقص وبعض رجاله يقفون في انتظار وصول

طاهر لتوديعـه علي المحطة . . كان الموقف فـوق تصور كل إنســان حـيث تقـدم إليـه الرجل المسن قـائلا وهو يستقبله :

– نحن جميعاً سـنكون في انتظارك . . عد إلينا يا بشير السلام، فأنت كلمة الحب التي سنتحاور بها بعدك .

و . . توقف القطار أمـام المحـطة، وصـعـد طاهر إلي إحدي عرباتـه من خلال حشود المحبـة التي توافدت من كل جهة لتوديعه . . وجلس بجوار النافذة يلوح لهم بيده في سعادة بالغة أمـام مراسم الصدق التي أحاطت به . . وتقدمت الدكتورة ماري نحـوه، ووضعت كفها فوق يده بجرأة قائلة :

– لن أنسي لك هذا الجميل ما حييت .

تساءل في براءة :

– أي جميل يا دكتورة ماري؟

أشارت برأسـها تجـاه شاب يقف بعيـداً عن المجمـوعة وأكملت كلمتها قائلة :

– هذا هو الدكـتور عـدلي . . جاء ليـودعك ويشكرك ايضاً، ولكــن الظروف تمنعه ان يظهـر نفسه لـلآخرين . فأنت تعلم تقاليدنا .

أرسل طاهر نظرته تجاه الشاب مع ابتسـامة رقيقة.. ثم التفت إليها قائلاً:

- أنا سـعيـد بذلك.. ولكني فـعلت هذا لإيماني بأن الحياة يجب ألا يسودها الكراهية والبغضاء.. لأنها أمانة الله.. فكيف يفترى الإنسان على تلك الأمانة.

و.. بدأ القطار فى التحـرك وعندما نهض طاهر يلوح بكلتا يديه مودعا أهله وأقاربه.. و.. أصدقاءه الجدد.

أمتار قـليلة قطعتها عـجلات القطار فوق القضـبان.. فجـأة.. أطلت رؤوس الافاعى البـشرية من بـين أعواد محصول القـصب وهم يحملون فى قلوبهم غل الشيطان وكراهيـة الحاقد، وراحوا يمـطرون عربات القطار بوابل من طلقـات الرصـاص بطريقة عـشـوائيـة وتقدم قـائد مـجمـوعة المجـرمـين وألقى بقنبلة يدوية داخل العـربة تصادف وجود طاهر فيهـا ليفجرها وتناثرت الاشلاء فى كل مكان، واختطلت الدماء بعـد ان انفجرت من عروق مختلفة الأجناس والأبدان.. والاديان.

مجموعة من القتلة المأجورين اتخذت قراراً مغلفاً بسواد الحقد وراحت تسفك الدماء البريئة بلا أى جرم.

أناس أعمـاهم المال فقذف بهم عـلى طريق الضلال..

وفقدا الضمير لتكون نهايتهم بئس المصير . . وتجردوا من الإنسانية لتلاحقهم لعنات البشرية . . قتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق .

دوى الصراخ فى كل مكان وإنقسمت الحشود إلى مجموعات البعض انشغل فى مطاردة هؤلاء السفاحين، والبعض الآخر وقف مذهولاً ليشهد على مذبحة لكل القيم الإنسانية . . وهم يرون أمام أعينهم أمانة الله تغتال باسم الباطل .

وكما إمتزجت دماء الأبرياء، توحدت مشاعر الأسوياء وخرجت جماهير أسيوط فى مظاهرة غاضبة ضد الارهاب يندددون بتلك الجريمة الشنعاء .

من خلال ذلك الحدث الجلل، انطلقت الدكتورة مارى تجاه عربة الموت التى كان يستقلها طاهر، وتبعها الدكتور عدلى بجرأة صادقة، وكان كلاهما يصاحبه هدف واحد الوصول إلى طاهر . . لم تخفهما النيران المشتعلة، ولا أرعبتهما أنات الموت، ولا حالت الدماء السائلة دون صعودهما إلى عربة القطار .

و . . أطلقت مارى صرخة مدوية كانت تمزق رئتيها عندما رأت طاهر مستقليا على ظهره بين باقى القتلى،

والدمـاء تندفع من فـمـه وصدره بشـدة، ولكن عـينيـه تصاحـبهما نظرة حـائرة. . وكأنه يتسـاءل فى صمت. . لماذا يحدث ذلك؟

إنكفأت على صدره وهى تنتفض هلعاً عليه صارخة؟

- ميخـائيل. . الأسعاف فى الطريق لاتخشى شـيئاً. . سوف تحيا وتعود بيننا تحركت مقلتاه بصعوبة تجاهها، ثم همس كصدى الصوت:

- إنهم مخطئون.

إختلطت قطرات دمـوعها مع دمائه السـائلة. . وقالت فى نبرة مرتعشة. .

أتوسل إليك لا تمت

إهتزت شفتاه، وكأنها إبتسامة الموت عندما لمح الدكتور عدلى وهو يحاول أن يضـمد جراحه. . فمـد يده بتثاقل شديد وتناول كف عـدلى ووضعه فـوق يدى مارى وهو لايزال محتفظاً فوق شفتيه بالرعشة المبهمة ثم ردد:

- الحب. . السلام. . الخير. . و. .

وسقط رأسه دون إرادة مع آخر نبضة فى قلبه.

وسرى نبأ الموت مع ذرات هواء الحياة. . إستنشقته كل صدور الأحياء.

مات طاهر وميخائيل . . مات ذلك الإنسان .

وفى اليوم التالى توافدت الجموع بالقاهرة على الجامع القريب من منزل طاهر يصلون عليه صلاة الشهيد الغائب . . طاهر .

فى الوقت الذى كانت فيه أجراس الكنيسة بأسيوط تدق تأهباً للصلاة على الشهيد الغائب ميخائيل .

لحظة واحدة جمعت بين الهلال والصليب . . بين عائلتى المستشار عمرو عبدالحميد وبطرس ملاك وهم يصلون على روح الشهيد الطاهرة .

لحظة يطلبون فيها من الله المغفرة على خطاياهم والرحمة على شهيدهم . . لحظة تقدس فيها دين الله . . لافرق بين دماء ودماء لا فرق فيها بين أجناس وأجناس، لحظة تكاد تملأ أصداء الدنيا بكلمات معبرة تقول :

لافرق بين عربى أو أعجمى إلا بالتقوى . .

كانت هذه اللحظة بحق . . موقفاً هو . . منتهى الحب .

إصدارات الأديب أحمد فريد محمود
جميعها أعمال روائية

اسم الشهرة ((أحمد فريد))

همسة وداع	نشرت فى ليبيا	١٩٧٢
الشك	نشرت فى ليبيا	١٩٧٣
خطوات على الطرق	نشرت فى ليبيا	١٩٧٥
نبضات لا تموت	مطبعة النهضة بالقاهرة	١٩٧٦
الحب وحده.. لا يكفى	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٠
دعنى أحاول	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٢
عندما يبكى.. الرجال	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٣
لا تدمرنى.. معك	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٤
يا صديقى كم تساوى	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٥
لن تسرق حبى	دار غريب بالقاهرة	١٩٨٧
سامحنى يا حب	دار غريب بالقاهرة	١٩٩٠
هو منتهى الحب	دار قباء بالقاهرة	١٩٩٤
عمر عمرى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠١
كذبت عليك.. فصدقنى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٢
يا أنا لا ترحل عنى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٤
حب بلا مأوى	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٥
الحب بعد المساومة	دار قباء بالقاهرة	٢٠٠٦

ممر الذئاب ـ ثلاثة أجزاء.
الحب الكبير ـ ثلاثة أجزاء.
● دار قباء أعادت طبع جميع أعمالى الروائية.
● حصلت على جائزة مهرجان القاهرة السينمائى عام ١٩٨٢ عن أحسن قصة لفيلم «الحب وحده.. لا يكفى».. اخراج على عبد الخالق.
● ترجـمت رواية «الحب وحـده.. لا يكفى» ورواية «عندمـا يبكى.. الرجال» إلى اللغة الصينية.
● تمت ترجمة رواية «هو منتهى الحب» إلى الإنجليزية.

الأعمال التى تحولت إلى أفلام سينمائية:

● الحب وحده.. لا يكفى.. اخراج على عبد الخالق.. سيناريو وحوار «مصطفى محرم».
● عندما يبكى.. الرجال.. اخراج حسام الدين مصطفى.. سيناريو «مصطفى محرم» حوار «بهجت قمر».
● لا تدمرنى.. معك.. اخراج محمد عبد العزيز.. سيناريو وحوار «أحمد صالح».
● يا صديقى كم تساوى.. اخـراج يوسف فرنسيس.. سيناريو وحوار «يوسف فرنسيس».
من مواليد القاهرة ١٩٤٧/٢/٨.
● عضو اتحاد الكتاب منذ بدايته.
● عضو نادى القصة.
● عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما.
● عضو رابطة الأدب الحديث.

رقم الإيداع ١٩٧٩٨ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-236-586-3